الفصل الثاني عشر

أرض سبأ

وبعد أن قلت وداعاً لم يكن هناك ما يبرر أي تلكؤ في الرحيل. وجاءني محمد ابن قطيان في ذلك اليوم استناداً إلى إشاعة مفادها أنني عدلت عن قراري بالسفر. وكان يبتغي -في محاولة أخيرة له- أن يحصل على هبة إضافية. أما صالح فقد طلبت منه ألا يفشي موضوع زيارتنا لنقوش عقلة. ولكن صالحاً كالعادة نشر هذا الخبر على نطاق واسع. وقال لي بلغة غير ودية مشوبة باعتذار ظاهر: «ها قد رأيت صخوري المنقوشة، ألم تكن كما أخبرتك؟» فأجبته: «بالتأكيد هي كذلك» ثم قلت له: «إنني الآن قد رأيت النقوش فلن أعطيك شيئاً». فاستشاط غضباً وذهب خاليَ الوفاض وهو يندب حظه. فاستدعيته وقلت له: «انتبه! المعرفة لاثمن لها. وأنت تود بيعها لكن الله زودني بها دون مقابل. الآن خذ هذه التسعة ريالات ولن أدفع لك شيئاً بخصوص النقوش». فأخذ الفلوس وذهب أدراجه في حيرة ظاهرة لكنه سعيد.

وفي الصباح الباكر خرجت محسنة وهي ملتفة بعباءتها الصوفية تهش أغنامها إلى المرعى. وهناك صالح الذي كان مشغولاً منذ الفجر وهو يجهز الاحتياجات الضرورية لأسرته قبل أن يفارقها في رحلة طويلة، ويبدو أنه لم يكمل تجهيزاته للسفر معنا حينئذ. وإذا ما انتظرناه ليكمل كل تجهيزات العائلية، فإننا لن نتمكن من بدء الرحلة؛ لذلك فقد تركت السيارة (البيك أب) في المخيم لتحضره إلينا في وقت لاحق. وغادرت المكان بصحبة سالم بن حمد من عشيرة آل مسفر الذي جاء ليقول وداعاً وحمد القردعي الذي سيسافر معنا إلى نجران. وبعد برهة وصل صالح الذي أوضح أنه استطاع بصعوبة بالغة أن يشق طريقه إلينا وأن يخلص نفسه من أهله الذين كادوا أن يمنعوه بالقوة من الرحيل. وكان لأمه العجوز قصب السبق في معارضة سفره حيث كانت تتعلق وتبكي بحرقة ومرارة. وكان صالح يلهث من العراك ولكنه كان سعيداً بانتصاره والتحاقه بالمجموعة.

وتحرك ركبنا حيث مررنا بسهل فسيح لا تعترضه أية عوائق وتتخلله بعض الأشجار الصغيرة باتجاه وادي خروة حيث يقبع أثمار، الصخر الهائل وكأنه الحارس للضفة اليمنى لهذا الوادي الذي يبتعد قليلاً إلى الأمام من مرتفع غالب. ويجري الوادي باتجاه الشمال ثم يغير اتجاهه تدريجياً نحو عقلة عابراً أرضاً حجرية صلبة تتخللها هنا وهناك بعض الشجيرات وأنواع متباينة من النباتات الأخرى. وخف الضفة الغربية الأخرى للوادي سلكنا سهلاً رملياً يحده من الجهة الغربية العديد من الكثبان الرملية. وتلوح على البعد باتجاه اليمين عفار حيث تظهر بعض أهم معالمه (شبوة). وأثناء توقفنا هنيهة لنستمتع بالمناظر الطبيعية انفجر أحد إطارات السيارة محدثاً صوتاً مزعجاً. أما سالم الذي كان من المفترض أن يودعنا ويذهب إلى القرية، جلس القرفصاء في الرمال ليناقش بعض المواضيع السياسية ذات الطابع المحلي مع صالح وحمد. وكنت حينها أتجول في السهل وألتقط كسراً فخارية وبعض العاديات القديمة التي تعود إلى حضارة عتيقة والتي ربما وصلت في أوجها إلى عقلة وربما بعد من ذلك. ومن على البعد كنا نشاهد قافلة الجمال التي كانت تتهادى بخطى متثاقلة وتتعرج مسيرتها خلال روابي شبوة وكأنها قطار بطيء في صريقه نحونا.

وبعد أن أصلح محمد إطار السيارة واصلنا المسيرة دون أن يرافقنا حمد الذي قرر أن يصطحبنا إلى مكة لكن بعض الشواغل حالت دون تحقيق هذا الهدف. وقد أسفت لعدم تمكنه من السفر معنا. وتابعنا المسيرة باتجاه الشرق متتبعين الألسنة المتثنية لـ «الرملة» إلى أن وصلنا دلتا المعشار، أو البقعة المسماة قوصة، بالقرب من القطة التي نزلنا فيها بغية الراحة في بداية الرحلة، وبعد أن قطعنا بضعة أميال أصبحنا في الطريق القديم الذي يمر عبر ممر الشقيقات، بين منطقة الرمال الرئيسة إلى اليمين وامتداداتها الجنوبية باتجاه عقلة. وبعد فترة قصيرة من تغييرنا لاتجاه سيرنا القديم حدث أن انفجر إطار آخر للسيارة فتأخرنا لبعض الوقت لإصلاحه قبل أن نتوجه إلى العرين التي تقع على مقربة منا باتجاه الشمال الغربي. وترتفع كثبان الرمال إلى قمم

تشبه حد السكين وهي بركان وزاهر وعقلة. وكنا نرى أحياناً بطن الوادي القديم يتكشف في وسط الرمال. وفي مثل هذه البقع كنا نجد المحار القديمة وشظايا حجر الصوان كما رأينا من قبل.

وبعد أن سرنا حوالي عشرين ميلاً من قوصة وصلنا إلى عارين وهي عبارة عن هضبة مرتفعة من الحجر الرملي والصخور المتحولة ترتفع بحوالي ١٥٠-٢٠٠ قدم من المستوى العام للرمال. ومن المؤكد أنها تمثل بقايا مرتفع قديم والذي يبدو أن امتداداته على الجانبين تتصل بمرتفعات أريام وطرباق. ومن هذه البقعة الأخيرة تمتد هذه السلسلة الجبلية في الأزمنة القديمة إلى مجموعة جبال مصيعر التي تشرف على آبار العبر. والنقطة التي اتخذناها مكاناً لمخيمنا عبارة عن خليج رملي عميق يخترق الهضبة المدفونة أجنحتها جزئياً في الرمال والتي تظهر أطرافها الحادة المهدّمة حيث يوجد العديد من الكتابات الثمودية للبدو الذين يسجلون ما يدور بخواطرهم أثناء عبورهم هذه المنطقة. وقمت بنسخ الكتابات قبل أن أصعد الهضبة مع فراج بحثاً عن الطيور. في الوقت الذي ذهب فيه صالح لاحقاً عند قمة الجبل التي من خلالها استطعنا أن نحصل على منظر عظيم لمحيطات من الرمال تبدو فيها أجزاء الصخرة التي نعتيها عبارة عن جزر صغيرة. ويلاحظ أن محاور الكثبان الرملية حولنا منتظمة الشكل إلى حد بعيد باتجاه غرب شمال، غرب شرق، جنوب شرق. وارتفاعات هذه الكثبان ضئيلة مقارنة بالارتفاع الهائل للبقعة التي نقف عليها لمشاهدة المنظر العام للمنطقة. وتقع عفار باتجاه الشمال الغربي حيث نرى من البعد هضبة الثنية حيث قررنا أن نمضي الليلة هناك. وتقع خلفنا غالب وعقلة والنسر كما يمكننا رؤية مرتفعات الرحيد البعيدة. وبمقدورنا أيضاً مشاهدة منظر أريام وطرباق. وهناك على سطوح الكتل الصخرية يوجد العديد من النقوش القديمة التي أصابها بعض الاهتراء بفعل الرياح والأمطار. وعلى مسافة ليست بعيدة يوجد منخفض ضحل مسور بكتل

حجرية. وهذا المنخفض جاف حالياً لكنه في فصول الأمطار يستخدم كخزان للماه التي تُسْقى منها الجمال العابرة لهذه الفيافي.

حضر صالح وبمعيته اثنان من الرعاة يحملون كمية كبيرة من الحليب لتعويض النقص الذي نعانيه في إمدادات المياه. وفي الصباح الباكر أحضر لنا الرعاة كميات إضافية من الحليب حيث نفحتهم بعض المال. والرعاة في هذه البقعة من أهل شبوة يعدون أتباعاً لبني سليم بن عفيشة حيث يقيمون مؤقتاً في أراضيهم. واثنان من هولاء القوم وصلا حديثاً في قافلة تتكون من سبعة جمال قادمين من منطقة الجوف وهم يحملون غلالاً وفي طريقهم إلى شبوة. وأخطرونا بأن أهل الجوف يأملون في أن يزورهم ممثلو ابن سعود لاسيما وأنهم غير راضين بسياسة حكم "السيد" المفروض عليهم من قبل "الإمام".

مكثنا في قمة الهضبة إلى ما بعد مغيب الشمس. وتشكل المنكشفات الصخرية والشجيرات التي تتخللها مأوى لأعداد هائلة من الطيور وكلها مهاجرة ما عدا طائر القنبرة الصحراوي. وطائر الحلق الأبيض الذي يعد زائراً معروفاً في هذه البقعة إضافة إلى طيور الدج (السمنة) والأبلق (أبو بليق) والصرد (الدعناش) ذي الذيل الأحمر. وثمة نسر يبدو منشغلاً في مطاردة طيور الخطاف. ويلاحظ أن هناك آثار صخور جيرية عند قمة الهضبة. ولكن عملياً فإن كل صخور الإيوسين القديمة قد تآكلت بمرور الزمن وتحولت كما يبدو إلى ما نرى الآن من رمال ذات لون مائل للبيخر يغطي كل هذه المنطقة. وتأخر وصول ركب المجموعة التي أوفدناها إلى شبوة لإحضار بعض التموينات إلى منتصف الليل مما استدعى أن نؤخر مسيرنا إلى صبيحة اليوم التالي. ووصل الركب الساعة الثامنة صبيحة اليوم التالي حيث واصلنا المسيرة مرة أخرى. وكان منظر جمال القافلة بديعاً وهي تتهادى نحونا بأذناب حمراء متدلية من سروجها في رشاقة واضحة.

ثمة إشارة هنا وهي إننا اكتسبنا خبرة وإن كانت ضئيلة في السير عبر الطرق الرملية التي تتناثر فيها الكثبان. وخلف منطقة عارين فإن كل المنظر عبارة عن محيط من الرمال سواء على هيئة سطوح ملساء أو متموجة أو على شكل تجمعات رملية مختلطة أو آكام ترابية. وهنا تظهر مقاطع لقيعان أنهار قديمة. وقد أشار إليّ صالح - بتكيد محيّر- صوب مضيق منخفض يقسم العائق الرملي في عرق الأبتر والذي يمتد لمسافات كبيرة بجهتي الشرق والغرب.

وعند ذلك المضيق، توقفت لأخذ قراءات لاتجاهات بعض المعالم من قمة أحد الكثبان. ورغم أنني كنت حريصاً على التوقف في أسفل المنحدر إلا أنني نسيت لجم كابح السيارة فتهادت إلى أسفل. وكادت أن تحدث كارثة لولا أن رأى محمد المنظر فركض تجاه السيارة وقفز إلى القدمية (عتبة السيارة) في الوقت المناسب وأوقف السيارة قبل أن تحدث كارثة.

تتكون كثبان البثر الرملية من العديد من الروابي وتشكل فيما بينها عائقاً ممتداً عدا هذه النقطة حيث يوجد مخرج عرضه حوالي الميل. ولهذه الكثبان محاور متسقة تمتد بصورة خفيفة تجاه الشمال الغربي، والجنوب الشرقي. ويبلغ سمك العائق الذي يعترض طريقنا حوالي الميلين. وخلف هذا المنظر بقعة مستوية تغطيها بعض نباتات الحاذ والركاضة الصحراوية وهي تظهر في طور السبات.

ويلاحظ أن أسفل الروابي تتناثر الحصباء وكسر حجر الصوان والأوبسيديان (الزجاج البركاني) وبقايات الصناعات القديمة التي تجرفها إلى أسفل مياه السيول. ونزلت عند أسفل هذه المنحدرات أتجول بحثاً عن الصوان بين الحصى. وفي أثناء ذلك كان محمد قد أوقف السيارة (البيك أب) محدثاً صوتاً لا تسيغه الأذن. وحلت بنا كارثة حيث انكسر المحور الخلفي للسيارة مرة أخرى. وتدريجياً أخطرت بتفاصيل الخراب الذي لحق بالسيارة. وبصعوبة بالغة تمكن محمد أن يحرك السيارة إلى أسفل المنحدر ومن ثم إلى الأرض المستوية. وكانت السيارة تتحرك ببطء وكأنها طائر مكسور

الجناح. وأشحت بوجهي عن هذا المنظر المؤلم وطلبت أن تفرغ السيارة من شحنتها وقام المرافقون بعمل وسم ابن سعود وجمعوا حجارة على هيئة نصب (ركام) على شرفها. ومن المؤكد أن السيارة والنصب الركامي سوف يتقاسمان ذات يوم قبراً من الرمال طالما أن ذرات الرمل الصحراوي تلتف حولهما على مر الأيام مكوّنة في نهاية الأمر كثيباً. وفي أثناء ذلك كان الحدادون في الصحراء يرغبون في أن تكون العربة ركاماً من المعدن. وفي حج عام ١٩٣٨م قمت بنقل ملكيتي للسيارة إلى صالح بن حزيق. وقد كانت شيئاً مريحاً له.

وبينما لا نزال في حالة إحباط وكآبة شديدتين جراء كارثة السيارة، تحركت قافلتنا عبر أرض رملية موحشة مسافة ستة أو سبعة أميال حيث وصلنا إلى أسفل واد واسع تكسوه قطع الحصى الصغيرة والحجارة البازلتية ذات اللون البني المحمر والتي ترتفع إلى ما يزيد على ٥٠ قدماً فوق مستوى سطح الأرض وتعرف محلياً باسم «أفاليل». وتكسو هذه الصخور رمال كثيفة تغطي طريقنا فيما يشبه العائق؛ لذا فقد توقفت برهة لاستطلاع الوضع من قمة أحد الروابي القريبة. واتضح لي أن السهل مغطى بكميات وافرة من محار المياه العذبة وشظايا الصوان والأوبسيديان وكسر بيض النعام. ويبدو أن بمقدورنا اكتشاف آثار المزارع القديمة حيث تحدها السدود المنخفضة الارتفاع. ولا يستبعد أن تكون هذه البقاع على جانبي منطقة الثنية الصخرية تشكل منظراً لمنطقة زراعية قديمة. وعند أقصى المنطقة الصخرية استرعى انتباهي منظر غريب لجلاميد ضخمة من البازلت توحي بوجود معبدٍ للشمس قديماً. وتشكل الصخور دائرة يتوسطها صحن محاط بالجلاميد يؤدي إلى مذبح حجري عند الطرف الغربي. فهذا المنظر، فضلاً عن اتجاه الصحن والمحيط الدائري يوحيان بأنه من صنع الإنسان. ولكن في ذات الوقت لا نستطيع استبعاد احتمال كونها فلتة وأعجوبة من الأعاجيب. وتجدر الإشارة إلى أنه لا توجد أي علامات أو كتابات، والموجودات التي عثر عليها عبارة عن رقائق من الصوان

يبدو أنها ناتجة عن قطع حجارة بواسطة الإنسان في رابية الثنية. وإذا لم يكن للإنسان يد في صنع هذا الشكل المعماري «المعبد» فالأرجح أنه استخدم لغرض طقوس دينية.

باءت جهودنا من أجل إيجاد مخرج من هذا العائق الطبيعي بالفشل. وكان صلح على رأي مفاده أن بإمكاننا اجتياز منطقة الرمال عند أقصى الجانب الجنوبي من منكشف «أفاليل» الصخري. ولكن بعد مسيرة ميلين بالسيارة في ذلك الاتجاه واجهنا عائقاً آخر وهو مضيق «شقت الجهيلي» الذي تتوسطه كثبان رملية مرتفعة. وبصعوبة تمكنا أن نتجه ناحية اليمين في ذلك الممر الضيق ورجعنا إلى نقطة البداية عند السهل الحصوي. ونجحنا عند الجهة الشمالية في إيجاد ممر ينتهي بنا إلى حجار «أفاليل» التي تشه معبد. ووجدت ملتقطات سطحية عبارة عن حواف قرون حيوانات كما رمقنا ثلاثة غزلان من نوع الإدمي وهي ترعى في المنطقة المجاورة. وقد ثبت لنا أنها نوع فريد من الإدمي وهناك شك ضئيل أن تكون هذه الأنواع غزلان عربية توجد في صحراء سبأ.

وبعد مسيرة ستة أميال خلف حجارة الأفاليل، التفنا حول مجموعة من الرابي سوداء منخفضة الارتفاع تسمى شحم البقر، والتي تبرز من الخط العام لسلة مرتفعات الثنية. وبين هذين الخطين من السلاسل الجبلية يبرز العديد من شحيرات الهد الصحراوية والتي يقبع خلفها حاجز رملي يشكل آخر عقبة قبل بلوغنا مقصدنا. وصلت الآن قافلتنا المحملة بالعفش والتي بدأت المسير من عارين الساعة السابعة صباحاً عابرة ثلاثين ميلاً في خلال عشر ساعات. وقبيل الساعة الخامسة مساء تحركنا عبر مضيق الثنية أو حيرة الثنية كما يسمونها، حيث خيّمنا هناك وسط بقعة تكسوها أشجار السرح الكبيرة وشجيرات الأكاسيا الشوكية. وبعد أن أفرغنا شحنة السيارة طلبت من محمد وصالح أن يرجعا إلى مكان سيارتنا (البيك أب) المهجورة والذي يبعد بحوالي ٢٠ ميلاً من معسكرنا. ورافقهم كل من معيض ومسفر. وقفل الوفد راجعاً الساعة التاسعة ومعه بعض أجزاء من السيارة تشمل معشق التروس

والعجلات الخمسة بإطاراتها. ولم يكن في مقدورنا حمل هذه الشحنة معنا فاضطررنا أن نتركها مخبأة بين الجلاميد على أن نستعيدها في وقت لاحق. ولم أر هذه الأجزاء من السيارة مرة أخرى. ولكنها وصلت لاحقاً إلى نجران عندما غادرت المكان في طريقي إلى مكة. وحدث أن عثرت مجموعة من بدو عبيدة من إقليم مأرب على أجزاء السيارة المخبأة بين الجلاميد وأحضرتها إلى نجران حيث سلمتها للحاكم. وترامى إلى مسامعي أن السيارة (البيك أب) قد تم تفكيكها ونقلت إلى مأرب بواسطة جمال. وثبت لاحقا أن هذا الخبر عار من الصحة. وبرجوعنا إلى نجران أوفدت إلى إبراهيم النشمي ناصر بن شماخ للتفاوض معه بغية استرجاع العجلات. ونجحت البعثة في مهمتها بعد مراسلات مطولة بين مأرب وصنعاء.

يعد العرب ثغرة الثنية -والتي يبلغ كل من طولها وعرضها حوالي ميل- مجرى وادي سبأ العظيم وادي عبيدة أو وادي أبراد، كما كانوا يسمونه. ويجدر التنويه إلى أن وفرة محار المياه العذبة وغيره من الرخويات يؤيد دون شك النقطة السابقة. لكن ثمة ملاحظة تدعو للدهشة وهي أن الأودية القديمة كانت تحفر مجاريها خلال الحجز الجبلي (ثغرة الثنية) بدلاً من الالتفاف حول طرفه الجنوبي الذي يبعد بضعة أميال والمحمي بكميات وافرة من الرمال. ونشير هنا إلى أن مرتفعات الثنية تمتد شمالاً وجنوباً فوق الرمال بارتفاع يصل إلى ٣٠٠ قدم عن مستوى سطح السهل الرملي. وقاعدة هذه المرتفعات ذات لون داكن وتتشكل من حجر الشيست الأردوازي. وتعتلي هذه القاعدة طبقات من صخر البازلت على هيئة أقواس تعمل على تثبيت وتدعيم بعض كتل الصخور فوقها والتي تبدو وكأنها رخام يتراوح لونه بين الأبيض الناصع إلى الأرجواني والأحمر والذي ينكسر ضوؤه عند الدرجة ٤٠. والملاحظ أن سلسلة مرتفعات الثنية تنحني بشكل دائري مكونة قوساً منخفضاً باتجاه الغرب يضم في حيته الشمالية خلجاناً كبيرة من الرمال تصل في بعض الأحيان منحدراته السفلى. والجزء الشمالي لهذه السلسلة الجبلية يمتد باتجاه الشمال الغربي حيث يتفرع إلى عدة جبال

ورواب منعزلة يمكن رؤيتها من على البعد. وباتجاه الغرب وعبر سهل رملي واسع تقع سلسلة جبال الرويك المشابهة للثنية. وهناك قمم مرتفعات الريان والتي كنا قد خيمنا فيها في رحلتنا السابقة وهي تقع خلف الجناح الشمالي لمرتفعات الرويك باتجاه الشمال الغربي. نحن الآن في غرة شهر أكتوبر وأشعر أنني قد استفدت من عطلتي في كشف أسرار أراض شاسعة تفصل الطرف الجنوبي من الربع الخالي من الجبال العلية المشرفة على المحيط الهندي. ودون ريب استطعت الآن أن أجد العلاقة بين وادي حضرموت ومنابعه في جبال اليمن. وحالي يشبه حال ابن الملك في شعر فريمان حيث استطعت أن «أسكب أحلامي وناظري فوق السهل»، وأتخيل الجدائل التي ضفرت في الماضي لبناء حضارة لم يستطع الإنسان إلا بشق الأنفس أن يجري عليها بعض التحسينات بعد مرور ثلاثة آلاف عام من المجاهدة غير المجدية. وأكبر تلك الجدائل هي سبأ العظيم والذي ينحدر من صرواح إلى مأرب. وروافد هذا الوادي هي الجوف ورغوان من جهة الشمال والجوبة وحريب وبيحان من جهة الجنوب. وفي الأيام الخوالي كانت تلك الروافد تجري مغذية هذا الوادي بغية تأمين حياة الإنسان ولتنعم مملكة عظيمة كان صيت تجارتها موضع حسد العالم وسبباً للكثير من الحروب. واليوم تنشر رمال الصحراء عطاءها فوق تلك الأرض التي كانت ذات مرة بقعة جميلة فتدفن أسرار عظمتها التي نسعى لإدراك كنهها.

وأثناء جلوسي برفقة صالح على قمة الهضبة الرخامية، كنت أجول بناظري لمشاهدة المنظر الشامل الممتد من عقبة طرباق - عارين - أريام في الشرق إلى مرتبعات العلم في الغرب والتي ستكون مقصدنا في ذلك المساء. وإلى الجنوب تقع بحر من الرمال تغطي مجرى وادي بيحان وروافده. وباتجاه الجنوب الغربي فإن تلال صاقر الصخرية والتي تآكلت بفعل التعرية تظهر خلفها منجم الملح الذي كان يشكل دخلاً متواضعاً لعشيرة عبيدة شبه الرعوية التي تستوطن مأرب. وبين هذه النقطة التي نقف عندها ومرتفعات الرويك، فإن رمال الوادي تتلاشى ليحل محلها سهل

حصوي. وأصبحنا نسير في أرض قاحلة موحشة خالية من الماء تماماً. وتحركت قافلة الجمال التي تحمل أمتعتنا مبكراً مع تعليمات مني بأن يكون الملتقى في وادي مهياش في وسط جبل العلم في ليلة ذات اليوم. ومع هذه القافلة ذهبت كل البراميل التي كانت تحمل إمداداتنا المائية. أما قافلة الجمال النجدية فإنها تأخرت لتتحرك على مسافة ليست بعيدة منا لاسيما بعد أن فقدنا سيارتنا (البيك أب) وأصبح بحوزتنا سيارة وحيدة؛ لذا فقد أصدرت تعليماتي بأن تسلك هذه القافلة طريق السيارة نفسه عند أطراف الرمال بقدر الإمكان تحسباً لأي طارئ.

كانت الساعة التاسعة صباحاً عندما تحركت بالسيارة وبرفقتي كل من صالح ومحمد وابن هضبان. أما بقية أفراد المجموعة وعفش السيارة (البيك أب) التي تعطلت فقد تم تحويلهم إلى مسيرة قافلة الجمال. وخلف مضيق الثنية اجتزنا أرضاً صلبة وصخرية تعلو المنحدرات الخارجية المنبسطة للثنية والتي يمتد وراءها سهل تغطيه طبقة خفيفة من الحصى. وفي الجهة اليسرى من مسيرنا كانت قافلة الجمال تخب بتثاقل فوق الأرض الرملية حيث كان أفرادها يلوحون لنا عندما زدنا سرعة سيارتنا لأكثر من عشرة أضعاف سرعة القافلة. وواصلنا سيرنا بسرعة خمسين ميلاً في الساعة من أجل أن نصيد بعض بقر الوحش والغزلان والتي نحتاجها لطعام العشاء. وبعد مسيرة خمسة أميال من طرف وادي مرخة تعطلت السيارة بصورة مفاجئة حيث تدحرجت في حفرة قطرها يتراوح بين أربعين وخمسين ياردة مكوّنة غباراً شديد النعومة ذا لون رمادي ويعتقد ابن هضبان أن هذه الحفرة لبعض البدو حيث يطلقون عليها اسم «نار صرصر» وهي «جهنم متقدة».

ويعتقد هؤلاء أن مصدرها باطن الأرض وتوجد هذه الحفر فقط في وادي الجوف وتعرف عندنا باسم «دبل فرعون» أو مجرى فرعون. ودار بخلدي في ذلك الحين أن هذه الحفر ما هي إلا فوهات براكين لم تفلح في اختراق القشرة الأرضية بعد. وهذه الحفرة ربما تكون مصدراً للخيال الشعبي في القرون الوسطى حيث يتداول

قصص «البحر الصافي» عندما تبتلع الرمال المتحركة أي شيء يجرؤ على المرور فوقها. ولم نتمكن نحن الأربعة من إخراج السيارة من هذا المنخفض. وبعد أن دعمنا قوتنا بأعداد إضافية من الرجال تمكنا أن نخلص أنفسنا من هذا المأزق بعد جهد كبير. وقمت بأخذ عينات من هذا الغبار الرمادي للفحص المخبري لاحقاً. وفي تقديري أن هذا الغبار ربما يكون بقايا غبار مثل ذلك الذي وجدته في قباب الملح في شبوة والمناطق المجاورة لها. والاختبارات التي أُجريت بواسطة خبراء المتحف البريطاني عن علاقة هذا الغبار بالفحم الحجري لم تصل إلى نتيجة موثوق بها وما تزال الاختبارات جارية. واتضح أن بالغبار بعض المواد العضوية والرمال العالقة من ذلك النوع الذي يتوقع جرفه بواسطة الأمطار من مرتفعات الرويك والثنية. والمادة العضوية ربما تمثل نباتات بحيرة قديمة أو مستنقع تحللت بفعل الزمن. وربما كانت هذه الحفرة ومثيلاتها بحيرات جافة تكونت في الأزمنة القديمة بفعل السيول التي تتخذ لها مجاري في وادي شبين. ويبدو أن هذا الوادي كان مأهولاً بالسكان في تلك الأزمنة الغابرة.

وواصلنا السير مبتعدين عن الأرض الحصوية الداكنة والتي تبدو على السطح وكأنها متماسكة بشكل كاف لمرور السيارات لكنها في حقيقة الأمر تخفي تحتها تربة ليّنة؛ لذا فقد فضلت السير في البقعة الرملية التي توجد فيها طبقة تحت السطح أكثر صلابة لمرور السيارات. ولكن هذه التربة الرملية سرعان ما تتلاشى لتحل محلها تربة أكثر صلابة تكسوها الحصويات وتمتد إلى مرتفعات الرويك. والغطاء النباتي في أغلب الأحوال جاف وفقير لكن يلاحظ وجود بعض البقع التي تتخللها شجيرات حديثة النمو ونبات اللبان الأخضر. ويبدو أن هذه النباتات نتاج أمطار حديثة. وتبدو في لأرض آثار وعول. وبعد فترة وجيزة من المسير ظهر وعل ذكر يسير وحيداً باتجاه الشمال في أرض جيرية.

ونسير الآن باتجاه الغرب حيث كانت مرتفعات الرويك موازية لنا في الجهة اليمنى. ويلاحظ أن المنظر العام للأرض بعد مسيرة ١٥ ميلاً يظهر شجيرات شوكية

وقطعان من الأيائل تعدو فرادى أو على شكل قطعان. وفجأة ظهرت أمامنا أربعة غزلان فقمنا بمطاردتها في بقعة حصوية ثابتة تتخللها بين الفينة والأخرى مجارٍ مائية ضحلة منحدرة من الجبال المجاورة وبعض الشجيرات غير المشذبة. وعند اقترابنا منها، أطلق ابن هضبان على إحداها (أنثى) طلقة أردتها أرضاً فوضعناها في السيارة راجعين إلى المخيم. وبعد ذبحها تقاسم كل من ابن هضبان وصالح الكرش حيث التهماها غير ناضجة. واتضح أن الغزالة (العفري) كانت في مرحلة متقدمة من الحمل لذا فقد احتفظت بالجنين لعمل المخلل. ولكن اضطررت لاحقاً التخلص منه لعدم وجود مكان لحفظه لا سيما وأن أمتعتنا كلها كانت ضمن حمولة قافلة الجمال.

واكتشف صالح فجأة اختفاء شنطته التي تحوي بعض مستلزماته الشخصية الخفيفة من الصندوق الخلفي للسيارة. فاضطررنا الرجوع لتتبع آثار مسيرنا بغية العثور عليها. ونجحنا في نهاية الأمر في الحصول على المستلزمات التي كانت مبعثرة على امتداد خط سيرنا. ووجدنا جيوب الشنطة خالية من محتوياتها. وبالقرب من الموضع الذي ذبحنا فيه غزالة العفري، استطعت أن أحصل على منظر شامل للمنطقة المحيطة. ووصلت إلى نتيجة يبدو أنها ستعمق سر رابية الثنية حيث اتضح لي من هذا الموقع أن هذه الرابية ذات شكل عادي ويتراوح ارتفاعها بين ٦٠-٧٠ قدماً من مستوى سطح الأرض. وعلى مقربة من الثنية توجد رابية الرويك التي تشابهها في تكوينها الجيولوجي حيث تتكون من صخر الشيست والرخام.

ثمة ملاحظة هنا وهي أن قمة رابية الرويك دائرية ذات شكل مستو. وفي الجانب الغربي من الرابية يوجد-دون شك- ممر عرضه ثلاث خطوات محاط على جانبيه بألواح من الحجر الصخري الأحمر. ويبدو أن طول هضبة الرويك حوالي ميل أو يزيد تتخللها أشكال برجية دائرية صغيرة غريبة تذكرنا بشكل الجدري في احرب العظمى. فبينما يشير ناظري إلى أن هذه الأشكال من إبداع الإنسان فإن ما يعتني حقاً هو أن هذه الأشكال البرجية تأخذ مسارها أسفل المنحدر الصخري على هيئة

خطوط طولية متقاطعة مع خطوط تحوي الأشكال نفسها لكنها تتخذ مساراً أفقياً؛ لذا لا أجد تفسيراً مقنعاً لهذه الظاهرة. واحتمال أن تكون هذه الأشكال ذات علاقة بأنظمة الري يضعفه شكلها الغريب ذو الهيئة الأفقية - الرأسية. وفي الوقت ذاته فإنه يبدو من غير المرجح أنها ذات غرض حربي لاسيما وأن أحجامها صغيرة حيث لا تتسع حتى لجندي واحد؛ لذا لا أتخيل غرضاً مقنعاً لهذه الأشكال الغريبة سوى أنها مكان عبادة شعائري للديانة السبئية. ولقد كنت متشوقاً للاقتراب من هذه الأشكال الغريبة. لكن وجودنا في قلب الصحراء مع نزر يسير من المياه فضلاً عن وعدنا لرفاقنا قافلة الجمال، الذين كانوا في انتظارنا عند نقطة التلاقي دفعاني لصرف النظر عن فكرة المبيت وتفحص هذه الأشكال الغريبة عن كثب بغية كشف لغزها المحيّر. وبقلب تملؤه الحسرة تركت ذلك المكان، يراودني حلم العثور على إجابة شافية لأشكاله الغريبة.

وسرنا باتجاه الغرب في سهل حصوي، وكما هو الحال في بداية المسير، فإن السطح الخارجي للأرض الذي يبدو متماسكاً يخفي تحته أرضاً زلقة تتخللها بعض مجاري المياه الضحلة. ثم ندخل أرضاً ذات تضاريس متباينة بين سهل ورابية، وعلى أطرافها توجد المنكشفات الصخرية لكل من المنقضة والضِبة والأشقر والتي ينحدر منها مجرى موسمي يسمى السديحات يحمل المياه من المناطق المرتفعة والسهول إلى القناة الرئيسة في وادي شيبان. وكانت أول علامة على هذا الوادي خط أسود من شجيرات الحمض التي تُرى على بعد نحوعشرة أميال في صحراء التيه. ومررنا في طريقنا بقطيع صغير من الغزلان (الإدمي)، حيث استطاع ابن هضبان أن يظفر بواحدة منها بطلقة واحدة بعد مطاردة قصيرة. وبعد أميال قليلة نزلنا في مكان تظلله شجيرات سمر عند منخفض السديحات لتناول وجبة الغداء المكونة من لحم غزال العفري والأتاناس والحليب مع الشاي والقهوة. وكانت درجة الحرارة ونحن في المكان الظليل ٩٥° فهرنهايت ورغم ذلك لم نشعر بحرارة مفرطة. ويلاحظ هنا أن طبيعة الأرض

تتراوح بين البقاع الصلبة والرخوة تتخللها بعض شجيرات الأكاسيا الشوكية والأشجار الخفيفة الظل. وتتناثر هنا وهناك المنكشفات الصخرية المكونة من حجارة البازلت. وبعد فترة وجدنا أنفسنا بالقرب من أحد غزلان العفري. وبعد مطاردة في أرض لينة استطاع ابن هضبان أن يظفر بالطريد مستخدماً مديته. والآن أصبح لدينا كمية وفرة من اللحم تكفي لكل القافلة. وبعدها واصلنا المسيرة مسافة سبعة أميال نحو البقعة التي نمضي فيها ليلتنا..

وعند اقترابنا من الزاوية التي تكونها مرتفعات العلم والمعروفة باسم الأسود والأبيض، رأيت منظراً يدعو للدهشة والانبهار. وكان ذلك المنظر عبارة عن أرض منحدرة مزينة بأشكال على هيئة أبراج تماثل تلك التي وجدت في مرتفعات الرويك. وعندما اقتربنا من المكان، لاحظت وجود منشآت أمامنا عبارة عن مقابر. وبدأت أفكر في الأمر ملياً، فالمنحدرات الصخرية والروابي المجاورة كلها تزخر بآلاف الأشكال البرجية والتي نفذت بوضع رأسي وآخر أفقي. والآن بدأ ينتابني إحساس بأنني في منطقة جبانة كبيرة وربما كانت الرويك جبانة أخرى. وكانت هناك خمس وعشرون مقبرة عند الطرف الخارجي لرابية العلم. وهذه المقابر دائرية الشكل بنيت بشكل متقن من ألواح حجرية مختلفة الأحجام غير مشذبة (دبش) من الحجر الجيري المحلي ويتراوح سمكها بين ١-٤ بوصات. وأكبر هذه المقابر يقع عند الركن الأيسر للمنحدر الصخري ويبلغ ارتفاعه عشرة أقدام وقطره ٢٥ قدماً ومحيطه حوالي ٨٥ قدماً. ومن الجلي أن يد العبث قد امتدت إليها بواسطة بعض لصوص المقابر. ويقع المدخل في الجانب الشمالي. وفحص العديد من هذه المقابر جعلني متيقناً إنه لا يوجد نظام معين للمداخل المطلة على ممر ضيق يتراوح ارتفاعه بين ٤-٥ أقدام فوق مستوى سطح الأرض. ويؤدي هذا الممر بدوره إلى غرفة وسطى بالارتفاع نفسه وبطول يتراوح بين ٦-٧ أقدام سقفت بواسطة ألواح حجرية كبيرة موضوعة بشكل متراكب ومغطاة بحصى غير متماسك ورمال. ورغم أن جزءاً من سقف الغرفة الداخلية قد أزيل

بواسطة العابثين، إلا أن الأطلال الشاخصة تبدو غير كافية لإعطاء صورة متكاملة عن طبيعة المنشأة. والملاحظ أنه لا يوجد أي أثر يشير إلى باب الغرفة الداخلية أو المدخل الرئيس، كما إنه لايوجد أي أثر يدلنا على صاحب أو أصحاب هذا القبر. فلم نعثر على أي عظام أو نقوش.

والقبر الثاني المجاور للقبر المشار إليه أعلاه يقع في قمة المنحدر إلى جهة اليمين، يبلغ محيطة ٢٠ قدماً لكنه تعرض للتلف والنهب بدرجة كبيرة بواسطة لصوص المقابر. وهناك مجموعة من أربع مقابر منتشرة على أبعاد كبيرة عند قوس المنحدر الصخري في حين أن هناك ثلاث مقابر كبيرة نسبياً تقع عند أسفل المنحدر الصخري ويتراوح قطرها بين ١٥-٢٠ قدماً. ولكن كل الجبانات الأخيرة لاتوجد بها أي قبور للإنسان. وكل المقابر يبدو أنها منهوبة المحتويات. ولكن الشيء الوحيد الذي يرجح أن هذه المقابر من صنع الإنسان وجود حجر ضخم يشكل فيما يبدو جزءاً من هذه المقابر على هيئة كبد، مجصص ومدهون بلون أحمر. ويصعب التيقن عما إذا كان ذلك دهاناً أو بقعة أو علامة طبيعية للحجر.

في الوقت الحاضر كنت مرتاحاً ومقتنعاً بما ظفرت به من بحث في ركن من الجبانة الكبيرة. وبينما كنت أقود السيارة لاحظت أن هناك أعداداً هائلة لا تحصى من المقابر من النمط السابق نفسه تنتشر في المنحدرات الصخرية لمسافة تزيد عن الميل. وفي طريقنا مررنا بمضيق يقسم هضبة العلم إلى قسمين. ودخلنا بعده وادي مهياش على الجانب الأيسر عند أسفل جرف العلم الأبيض حيث قضينا الليلة هناك. ويبدو أننا سنستبق قافلة الجمال قبل غروب الشمس. وأثناء ذلك كادت إمدادات مياهنا تنفد. وكنت أصر أن نترك شيئاً من الماء للسيارة والباقي لاستعمالنا. وتبقت لنا قطعة أناناس واحدة ولكنها جفت، لذا فتحت إحدى علب اللبن التي بحوزتي. ووافقت على اقتراح سعد بأن تواصل قافلة الجمال المسير في منتصف الليل حتى تستطيع أن تبلغ مسعودة قبل أن ترتفع درجات الحرارة في النهار. ولم أعرف ما هو السبب الذي

جعل قافلة الجمال تتأخر في الوصول إلى نقطة الملتقى؟ هل يعزى ذلك إلى الصدفة المحضة أو كان ذلك عملاً متعمداً لاسيما وأن المجموعة النجدية للمرافقين لم تكن على وفاق مع مجموعة الأهالي المحليين.

وبقيت مجموعتنا الصغيرة مع سيارتنا الوحيدة في انتظار قافلة الجمال وهي تتفيأ الفضاء الموحش الممتد من مرتفعات العلم إلى ساحل جبال اليمن البعيدة. وشعيب مهياش مجرى مائي موسمي (واد) ينحدر على امتداد أطرافه الجنوبية ومحاذياً للجرف الصخري ليتصل بمجرى مائي ضحل يسمى عضات الرِكع والذي يتصل بدوره بوادي أبراد الواقع أسفل وادي سُيمرة والأخير ربما يكون المجرى المائي القديم لوادي الجوف. وعلى مسافة تبعد ٥-٦ أميال من موقعنا الحالي فإن المجاري المائية لكل من وادي مأرب ووادي الجوف تتحد لتكوّن وادياً واحداً. وثمة إشارة هنا وهي أن جبال الجوف التوأم البعيدة تحدد موضع مأرب نفسها والتي تقع مباشرة باتجاه الجنوب الغربي من موضعنا الحالي. وفي أقصى الشمال وفي خط سيرنا فإن لسان حيلان الصخري يحدد مخرج وادي رغوان من بين المرتفعات المجاورة. وباتجاه الغرب والشمال الغربي ترى مرتفعات اللوذ وقمتها المسماة زويرة والتي كنا قد رأيناها عن بعد في رحلة الذهاب للمرة الأولى استطعت رؤية قلب سبأ التي كانت مركز الحضارات المعينية والسبئية التي نعرف معلومات ضئيلة عنها. واندهش الآن، كم من هذه الأراضي والسهول الواسعة كانت في غابر الزمان مخضرة ومستزرعة بالحبوب وأشجار النخيل؟. واليوم نلحظ أن الأطراف الشمالية والجنوبية لسبأ القديمة ترقد غير مستصلحة وخالية من الزرع تحت صفحات الرمال.

والجرف الصخري وراءنا يبلغ ارتفاعه ١٥٠ قدماً ويتشكل من الحجر الجيري وينحدر تدريجياً نحو الشرق بزاوية قدرها عشر درجات، وأطرافه السفلى باتجاه وادي مهياش تتناثر فيها بعض أشجار الأكاسيا. وتسلقت ومعي ابن هضبان اجرف الصخري لنواصل بحثنا عن المقابر القديمة التي رأيناها تغطي الأفق ونحن في

المعسكر. وإلى اليمين والشمال من موقعنا فإن الجبانة تبدو وكأنها تمتد على مدى البصر وبالتالي لم أستطع أن أتفحص سوى جزء ضئيل منها. ويمدنا المنحدر الشرقي من قمة الجرف الصخري على ارتفاع ٣٠٠ قدم بجانب من منظر الجبانة. وفي هذا الجزء الضئيل من المساحة استطعت أن أحصي ١٨٠ مقبرة مختلفة الأحجام في حين أن كل قسم من الجانب الشرقي المشرف على منحدرات العلم الأبيض توجد فيه مجموعات هائلة من المقابر. ويزعم صالح بن حزيق أن هناك مجموعة أخرى من المقابر عند أسفل مرتفعات الجدران في جهة الجنوب. أما الجبانة الأخرى الوحيدة في هذه المنطقة فهي الرويك. وتزعم الروايات الشعبية أن المقابر المعروفة باسم الرُدم أو النصب الركامية والتي تقع على امتداد الطريق من نجران إلى صعدة مساكن للكفار القدماء بنيت لتحميهم من العقاب الإلهي الذي ظهر في الرجم الجوي بواسطة طيور الخطاف (السنونو). ومن الواضح أن القصة القرآنية بخصوص هلاك جيش أبرهة ذات تأثير واضح على هذه الرواية. ولم تحفظ الذاكرة شيئاً عن الماضي البعيد عندما كان موتى سبأ يكرمون بدفنهم في مثل هذه المقابر.

وجدير بالتنويه أن الإنسان العربي الحديث وهو يلحظ هذه القفار الموحشة لم يفكر ملياً ليتصور أن إنسان تلك الأحقاب القديمة الذي كان يقطن بالقرب من هذه الجبانات الكبيرة كان يعيش حياة مختلفة للغاية في ظروفها عن الوقت الحاضر. وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن بقايا البحيرات المندرسة وآثار الأنهار القديمة والأماكن المرتفعة ذات الوضع الشعائري المقدس بالقرب من الرويك كلها آثار تعيننا على سبر أغوار الماضي وحل ألغازه. وهناك ظاهرة شبيهة بتلك المذكورة أعلاه نجدها في منطقة الخرج، وفي كل من الأفلاج ونجران، نجد أزمنة كانت فيها الأوضاع العربية تتباين تماماً والوضع الحالي، وهذا الوضع نفسه يمكن أن يماثل أوضاعاً في صحارى أخرى.

تقع رابية العلم الأبيض باتجاه غرب الشمال الغربي وشرق الجنوب الشرقي. ويلاحظ أن الجرف الغربي لهذه الرابية يتميز بالانحدار الشديد ناحية الغرب وبانحدار

معتدل ناحية الشرق حيث يقسم إلى عدة أقسام بواسطة الثنيات الضحلة الأودية الصغيرة. وتصطف المقابر على امتداد قشرة الجرف الصخري على شكل عناقيد لتكون ما يشبه المتراس. وبصورة عامة فإن هناك ١٢٠ منشأة حجرية صغيرة الأحجام مشيّدة بواسطة ألواح حجرية. وبعض هذه المنشآت دائرية الشكل والبعض الآخر وضع على هيئة أكوام يتراوح ارتفاعها بين اثنين وثلاثة أقدام. والثمانون الأولى من هذه المنشآت والتي تبدأ من نهاية الجانب الغربي من الجرف الصخري تشكل خطاً متصلاً مع الثمانية والخمسين منشأة المهدمة والكبيرة الأحجام نسبياً. أما المنشأتان الحادية والثمانون والثانية والثمانون فهما منفصلتان عن بقية المنشآت بحوالي ثلاثين ياردة. وخلف المنشأة رقم ٨٢ يوجد صفان من المقابر الصغيرة التي تقع عند أقصى الخط الجنوبي المجاور لطرف الجرف الصخري.

ومن جهة أخرى فإن الخط الداخلي لهذه المنشآت يحتوي على ٢٠ مقبرة في اتجاه الشرق و١٢٠ مقبرة باتجاه الغرب. ومن المقبرة رقم ٨٢ وباتجاه الشمال الشرقي توجد خطوط متوازية لكنها غير منتظمة من المقابر بأحجام مختلفة وتتجه ناحية وادٍ صغير إلى أسفل الجبل. وستة من هذه المقابر تقع في خط واحد يبدأ من المقبرة رقم ٨٢. أما المقابر بأرقام (١٢٧-١٢٨) فكلها بحجم واحد ويبلغ قطر كل منها ٢، قدماً. وتتلو هذه المقابر المقبرة ١٣٤ في حين أن المقبرة رقم ١٢٨ هي أكبر هذه المقابر جميعاً ويبلغ قطرها حوالي ٣٠ بوصة ومدخلها في اتجاه الغرب. أما محيطها فهو مغطى بكتل الأحجار غير المشذبة (١٨ بوصة مربعة) وارتفاعها أعلى من سقف القبر. ويبلغ ارتفاع المدخل ٣ أقدام فوق مستوى سطح الأرض، ويصل اتساع ممر المدخل إلى ٣٠ بوصة وطوله ٦ أقدام. ويبلغ ارتفاع المنشأة الكلي سبعة أقدام ويتكون من ثلاث عشرة طبقة من صفائح الحجر المستوية. وبوسعي الآن ترجيح الاحتمال بأن الغرفة الداخلية سليمة لم يعبث بها ولكنها مملوءة بالرمال لارتفاع يبلغ قدماً. ويبدو لي أن هذا البناء هو أهم هذه المقابر جميعاً؛ لذا فقد قصدت أن أصفه بشيء من التفصيل

لإعطاء فكرة عن هندسة هذه المنشآت الحجرية. وهناك مقبرة أخرى تختلف في تصميمها الداخلي عن بقية المنشآت؛ لذا فقد استحقت انتباهاً خاصاً. وهذه المقبرة ذات شكل خماسي ولها خمسة ألواح ضخمة تشكل جدرانها وتسند السقف، ويبلغ كل من ارتفاعها وطولها أربعة أقدام واتساعها ثلاثة أقدام. وثمة ملاحظة جديرة بالانتباه وهي أن الفتحة المؤدية إلى الدهليز في تلك المقابر تتجه ناحية الغرب. وربما يعزى ذلك إلى الاتجاه الطبيعي للهضبة نفسها. ومما يدعو للدهشة كما هو الحال في المجموعة السابقة، فإن هذه المنشآت تخلو تماماً من أي أثر لنشاط إنساني من عظام أو خرزة أو غيره. والشيء الوحيد الذي عثرنا عليه عظام ثعلب نفق فيما يبدو منذ زمان بعيد. وفضلاً عن ذلك توجد متحجرات من العصر الجيوراسي تربط جيولوجياً مرتفعات العلم بما يشابهها من الترسبات الجيوراسية بالقرب من عمران في اليمن وجبل طويق في أواسط الجزيرة العربية.

يقول بليني إن السبئيين كانوا لا يهتمون بدفن موتاهم حيث كانوا يلقون الجثث في نهايات مدنهم. ولكن هذه الأدلة المذكورة أعلاه تنفي هذه المقولة وتؤكد أن هناك نظاماً محكماً لشعائر الدفن. وربما كانت المجموعتان السابقتان للمقابر في الصحراء عبارة عن نصب جوفاء Cenotaphs أقيمت لموتى دفنوا في مكان آخر. ولكن من جهة أخرى فإن وجود كميات كبيرة من المياه في هذه الأصقاع في تلك الأزمنة يوحي بوجود أراض زراعية كبيرة ومجتمع رعوي على أطراف هذه الجبانات. والمثال الذي أوردناه سابقاً من منطقة الخرج يؤيد هذه الحجة. وبالرغم من عدم وجود نقوش في كل هذه المقابر حتى الآن، فإن بعض النقوش الحميرية قد عثر عليها في منشآت حجرية مشابهة بالقرب من نجران. ويبدو أن تلك المنشآت ذات علاقة بالفينيقيين الذين ركبوا البحار واشتهروا بالتجارة والأسفار. وكما هو معلوم فإن الطلب المتزايد على التوابل والعطور في مصر القديمة كان سبباً في نشأة تجارة برية واسعة النطاق مع جنوب الجزيرة العربية. وكما هو معروف، فإن أقدم الأسر الحاكمة في هذا الجزء من

العالم هي أسرة المعينيين وعاصمتهم معين في الجوف الجنوبية. وهذا الاسم (معين) يوحي بصلة مع المينويين Minoan في جزيرة كريت -والتي كانت لها صلات قديمة مع مصر-. لقد كان ملك مصر (شقيق) ملك الفينيقيين كما تقول الأسطورة. وهل يمكن القول إن هؤلاء المعينيين بعد أن دانت لهم السيطرة على التجارة البرية للقوافل في الجزيرة العربية أقاموا علاقات تجارية بحرية في حوض البحر الأبيض المتوسط وذلك للاستفادة من مصادر ثروتهم في الجزيرة العربية؟. وتدريجياً استوطنو في البحر المتوسط لتأمين نشاطهم التجاري. ورغم عدم وجود دليل قوي يؤيد هذه الفرضية إلا أن الصلات بين مصر وكريت وساحل بلاد الشام في الأزمنة القديمة لا يمكن إنكارها. كذلك كان للفينيقيين في سوريا -دون ريب- صلة بالبحرين تمتد صلات الأخيرة حتى الخرج والأفلاج. وسبأ نفسها ليست بعيدة عن هذه المناطق خاصة إذا تذكرنا أحوال المناخ المواتية في ذلك الزمن. وهكذا فإنه ربما كان إقليم سبأ هو الموطن الأصلي للفينيقيين. ويمكن أن تكون الصورة عكسية، بمعنى أن الحضارة المعينية استمدت وهجها الحضاري من حوض البحر الأبيض المتوسط ومصر وجزيرة كريت. وهذا يعني أن الحضارة الأولى استمدت عناصرها من عنصر خارجي وافد من الشمال إلى هذه المنطقة بغية الحصول على الذهب والتوابل. ومع هؤلاء الفينيقيين جاءت ديانة القمر لتبقى حتى يومنا هذا في التقويم العربي بعد أن تبناها الإسلام من الموروث القديم؛ لذلك فإن الجبانات الكبيرة التي عثر عليها في الصحراء هي أهم الاكتشافات في رحلتي هذه. وحتى إن لم نهتد إلى معرفة لغز هذه المقابر فإنها على الأقل قد مهدت الطريق إلى أبحاث مستقبلية في هذا الموضوع. وإذا ما تمكنا من تحديد تاريخها ومنشئيها فإن أحد أهم الأسئلة عن الحضارة الإنسانية قد وجدت طريقها للإجابة. وبالنسبة لي: . . .«فيمكنني أن أنظر في البعيد وعبر أريز الهواء فوق الجبال والأرض الشاحبة ومن وراء أقواس الرمال التي جرفتها الرياح إلى شارات مدينة في ضباب الفضاء والضياء».

وأقرب الأطلال السبئية لمسيرنا يعرف باسم خربة أبي السعود ويسمى في النقوش يلت YLT ويبعد موقعه بما يزيد عن الأربعين ميلاً بقليل خلف وادي الجوف. وبعد مسيرة ميل أو ميلين من موقعنا في غربي هضبة العلم بدأنا نتحرك ببطء في منطقة وعرة يكسوها الحصى. وبعد ذلك وجدنا أنفسنا نسير في أرض سهلة مغطاة بأحجار صغيرة ناعمة وتتخللها في بعض الأحيان خطوط مصارف مائية متحدرة من جهة الشمال تقودنا إلى منطقة كثبان رملية ذات شكل أحمر ذهبي (هبل فريدة) حيث توقفنا هنيهة لاستطلاع الموقف وعمل مسح للمنطقة. ومن ثم واصلنا المسير حيث اجتزنا طريق القوافل المؤدي إلى مناجم الملح في صفرة بالقرب من مستوطنات الجوف المعروفة محلياً باسم (بلاد دهم). ورابية هيلان الطويلة الواقعة بين فتحة وادي رغوان ومأرب بالمثل تسمى (بلاد نهم). وأثناء ذلك، هبت بعض العواصف الترابية حولنا أثناء جلوسنا عند قمة إحدى الكثبان الرملية مما سبب وضعاً بغيضاً.

وتعد زويرة أعلى قمة في رابية اللوذ الجرانيتية التي تبرز فوق سهل الجوف، بينما نجد في الجهة الجنوبية الغربية مجموعة من ست رواب صغيرة مستديرة تتوسط كثباناً رملية على الجانب الأيمن من وادي الجوف. وتعرف هذه الروابي باسم الكناس.

وواصلنا سيرنا باتجاه الغرب - الشمال الغربي في سهول رملية. وبعد أن اجتزنا ٤٠ ميلاً بدأنا نقترب من خط الكثبان الرملية المسماة (عريق). ومن هذا المكان واصلنا المسير حوالي ١٦ ميلاً حيث عبرنا مضيقاً غير وعر وجدنا بعده أنفسنا عند مجرى مائي واسع هو وادي الجوف، وتتناثر حوله أشجار الأكاسيا الشوكية. وفي الجانب الأعلى من الوادي باتجاه الشمال الغربي توجد بعض الروابي الصغيرة، وأسفله باتجاه الجنوب الشرقي في الصحراء يميل الوادي إلى اتخاذ مجرى مستقيم وأواسط الوادي خالٍ من الغطاء النباتي. أما آخر وأوسع مجرى للوادي فهو ينقسم إلى عدة أقسام

جداول بواسطة أحزمة حصوية. وعند الطرف الأقصى للوادي يوجد سهل صلب التربة، تغطيه الأشجار والنباتات المختلفة ويكوِّن ما يشبه الدلتا لوادي الجرف وفروعه. وثمة إشارة هنا وهي أن قافلة الجمال التابعة لنا كانت قد توقفت في منطقة الأشجار إلى اليمين من معسكرنا لقضاء وقت القيلولة وذهب ابن هضبان لتسقط الأخبار منهم. وتابعنا السير لنلحق برفقائنا الذين تحركوا أمامنا ولكن لغز (آل هندي) لا يزال دون حل. ولكنهم لم يمروا عبر هذا الطريق، لذا فقد انتابتنا الدهشة حول وجهة هؤلاء.

وبدأت سيارتنا الأولى تعاني من بعض الأعطال حيث انكسر المكبس (البستون) محدثا صوتاً يشبه الخشخشة أو القعقعة؛ لذلك فقد اضطررت لقيادة السيارة ببطء حتى نصل إلى مسعودة بسلام. وبعد مسيرة سبعة أميال خلف وادي الجوف وصلنا إلى الجزء الأوسع والطرف الأكثر وعورة من وادي المُسيجد وهو أحد فروع مجرى مياه وادي رغوان. وتوالت المصاعب حيث أدى الطريق الوعر مع المكبس المكسور إلى صعوبات جمة في حركة السيارة. وعندما اقتربنا من رابية عدوان توقف المحرك تماماً. واضطررنا إلى قضاء الليلة في هذا الموقع حتى وصلت قافلة الجمال. وأرسلنا بعض رجالنا للقيام باتصالات مع البدو في المنطقة وجلب الماء لتأمين احتياجاتنا ليقية الرحلة.

وأجهض حادث تعطل سيارتنا بعض المخططات التي كنت أنوي تنفيذها ء لتي ناقشتها مع كل من صالح وابن هضبان خلال الرحلة. ويبدو أن يومين كافيين لإكمل الاستعداد لما تبقى من الرحلة وذلك بإصلاح السيارة والحصول على مياه كافية. واستمر محمد في إصلاح السيارة بمساعدة كل من صالح وابن هضبان بينما كنت أقوم ببعض المسوحات لتقصي أحوال المنطقة. وكنت أتوق للوصول إلى سبأ لقضاء الليل هناك. وبعد أن وصلت الأمتعة التي تقلها القافلة استطعت أن أحصل على الأجهزة التي كنت استغلها ليلاً مثل: مصباح الضغط الذي كان مرشداً لقافلة الجمال وهي

تسير بعيدة عنا في بعض الأحيان. وحصلت على بعض علب الفاكهة والحليب المجفف التي كانت بحوزة مجموعة قافلة الجمال. وكانت هذه المواد الغذائية تجد ترحيباً خاصاً وسط المرافقين الذين كانوا معي في السيارة. وكانت كمية التبغ التي بحوزتي قد نفدت ولكن تمت معالجة هذه المسألة. وكان عليّ القيام ببعض الأعمال المساحية بمعاونة محمد الذي كان يحمل المصباح أثناء انهماكي في العمل. أما سعد فقد ذهب إلى البئر مع الجمال ليحضر لي صناديقي ولمّا لم يجدها فقد تأخر في العودة.

وكما لاحظت في العديد من الأماكن في هذه الصحراء الخالية من المياه فإن أوعية الماء الجلدية (القرب) التي ترشح بعض القطرات على سطحها الخارجي تجذب أعداداً هائلة من الفراشات التي تمتص الماء بنهم شديد ولم يكن باستطاعتنا اصطيادها. وذهبت للنوم وتركت كلاً من محمد وصالح يواصلان إصلاح السيارة وقد تخضبت أيديهما بالدهن، ولا أدري متى ذهبا للنوم؟.

وكانت درجة الحرارة قد بلغت ٥٢° ونحن على ارتفاع يبلغ ٤٥٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر. وتشرق الشمس الساعة السادسة لتزيل البرد وترتفع درجة الحرارة عند الساعة التاسعة صباحاً إلى ٩٠° فهرنهايت. وفي الأفق البعيد تلوح أعلى قمم جبلية في اليمن (٩٠٠٠-١٠٠٠٠ قدم) والمسماة عشير، والواسط والخانق. وفي شمال ضيقة التي تمثل فوهة وادي رغوان حيث تمتد المرتفعات على شكل نصف دائري إلى جبال صفرة وحراب ومضرة والشهلا على الجانب الأيسر لوادي الجوف المنحدر من جبال حجاز بن جدعان. وإلى الجنوب من ضيقة فإن ربية هيلان تستمر مطلة على الصحراء إلى أن نصل مأرب. وتقع زويرة أعلى قمة في الجانب الأيسر من وادي الجوف ومن ورائها حليف وقدم وتحدد قمم خرج موقع مأرب إذ تقع مباشرة جهة الجنوب المائل للشرق قليلاً. وأعطاني وقوفنا الاضطراري في عدوان فرصة طيبة لمعرفة جيدة بجغرافية سبأ.

ولم يستطع محمد أن يكمل عمله طوال الليل. وبعد أن احتسيت كوباً من الشاي استأنفت عملي في دراسة المنطقة التي حولنا. وساور كل من صالح وابن هضبان الخوف من المعلومات التي تحصلا عليها من امرأة ترعى الأغنام والتي تفيد بأن الصحراء الواقعة بين مسعودة ومأرب خالية من أي أثر للحياة. وكنا في ورطة حقيقية لاسيما وأن رفقاءنا من مجموعة الجمال لا يزالون عند البئر لا يعرفون ما هي وجهتنا التالية. وعلاوة على ذلك فإن محمداً لم يكن قادراً على الاعتراف بأن محاولاته لإصلاح السيارة قد باءت بالفشل. ورغم كل هذه الصعاب قررنا استئناف السير الساعة التاسعة صباحاً.

تحرك ركبنا بسم الله واجتزنا خمسة أميال على أرض صلبة تكسوها الكثبان الرملية وتتخللها بعض المسيلات المائية وتتناثر بجوارها بعض الشجيرات. وكنت أقود السيارة بحذر شديد باحثاً عن أي خط سير يكون أقل خطورة لسيارتنا. وكانت هناك بعض الغزلان تنسل من بين الشجيرات هنا وهناك ولكن كنا لا نعيرها اهتماماً. وكان وضعي مثل طالب المدرسة الذي يريد أن يخطف فاكهة من البستان خلسة. وكاد كل من صالح وابن هضبان أكثر عصبية وقلقاً مني في هذه الظروف العصيبة التي نخترق فيها الصحراء. وكان يخيل إلينا أن كل صخرة كبيرة في الصحراء عبارة عن رجل يتجسس علينا. ولكن الحظ كان معنا. وفيما عدا الغزلان والطيور فلا يوجد مخلوق واحد في هذه الصحراء القاحلة.

وخلف منطقة المُسيجد اجتزنا سهلاً حصوياً متموج الشكل، ومررنا بعض آكام الكسعين إلى الجانب الأيمن من خط سيرنا. وتوقفنا هنيهة وصعدنا رابية تسمى صمدة للاطلاع على المنظر العام للمنطقة التي حولنا. ونحن الآن على بعد ثلاثة عشر ميلاً من المعسكر. ولاحظنا أن قمة رابية خرج الأيسر تقع مباشرة جهة الجنوب على بعد عدة أميال من موقعنا الحالي. ويعلم الجانب الأيسر من وادي أبراد ثلاثة هضاب صغيرة تسمى تدوين وهو إلى الجنوب الشرقي من مكاننا، ويقع كناس في جهة

الشرق على جانبي وادي الجوف. وبعيداً في جهة الغرب يوجد تل مرتفع في اتجاه صرواح التي كانت يوماً ما عاصمة لإمبراطورية سبأ. وما زالت مرتفعات زويرة والبضبة تقف ظاهرة في الشمال.

وعند منتصف الطريق تقريباً إلى قمم جبال خرج تتغير طبيعة الأرض حيث تظهر بعض البقاع التي تتناثر فيها حمم اللابة البركانية، بينما تفصلنا عن هذه الجبال طبقات سميكة من الرمال. وتجاوزنا هذه العقبة بعد عثورنا على فتحة يتراوح اتساعها بين ٢٠٠-٣٠٠ قدم تؤدي إلى سهل دائري يسمى قعاد محاط بكثبان عالية من الرمال، وعند الجانب الأقصى لهذه الرمال الواقع أقصى جبل خرج يوجد ممر جبلي منخفض بين الاثنين. وقمت بتحريك السيارة باتجاه المنحدر الرملي الذي يخفيها تماماً عن الأنظار. ووضعتها مواجهة لأسفل الجبل باتجاه ديارنا وذلك حتى تكون جاهزة للتحرك السريع في حالة الطوارئ. وبقي محمد مع السيارة بينما بدأ ثلاثتنا تسلق الجبل مباشرة.

وأول ما يسترعي الانتباه أن جبال خرج بركانية التكوين وترتفع حوالي ٤٠٠ قدم فوق مستوى سطح الأرض. ويشابه التكوين الجيولوجي لجبال خرج جبال كرش عند وادي الحاضنة حيث توجد كتل الأولفين واللابا عند جوانب الجبال. وعندما تسلقنا الجبل وجدت نفسي أمام فوهة بركان ذات جدران سليمة ترتفع حوالي مئة قدم فوق مستوى سطح الكثبان الرملية المحيطة بالمكان. وهذه الجدران على هيئة جوهرة تقع داخلها الفوهة ويصل قطرها إلى ٢٥٠ ياردة. والحمم البركانية في قمة الجبل ذات لون بني يشبه الصدأ ومختلطة ببعض كتل الأولفين. ويرجح أن يكون هذا البركان حديثاً.

وصلنا إلى فوهة البركان عند طرفه الجنوبي الغربي. والآن تحركنا باتجاه الطرف الشرقي له الذي يمدنا بمنظر جميل للوادي. وأسفلنا مباشرة يوجد منظر لأكوام من الأطلال التي التقطت لها بعض الصور كما قمت ببعض الأعمال المساحية لمعرفة

الاتجاهات. وفي هذه الأثناء تحرك صالح ناحية الجانب الجنوبي من الفوهة لجمع معلومات عن الموقع. وبعد برهة اتجهت ناحية صالح جهة الجنوب الذي أشار إليَّ نحو موقع مأرب، وهي الآن تختفي خلف رابية منخفضة، تشبه الحصن ذا الشرفات المفرجة القابع فوق قاعدة مربعة الشكل التي تشبه مدينة أربيل في العراق. والمباني الحديثة لمأرب بنيت من الأحجار القديمة. وعند أسفل الجبل إلى جهة اليمين يوجد مبنى على شكل حصن. ومن ناحية الحجم فإن القرية لا تبدو أكثر اتساعاً من شبوة ولكن يبدو أننا لم نر سوى قلعة بارزة وسط حقل من الأطلال التي لم نعرف كنهها بعد والتي تبعد حوالي ثلاثة أميال من موقعنا الحالي. وأصبت بشيء من الإحباط لعدم تمكن أدلائي من إرشادي لأقرب نقطة لمنظر أطلال القلعة. والآن يستحيل إيجاد بدائل؛ لذا فقد جلست أسجل أقصى ما يمكن تسجيله عن هذه الأطلال الماثلة للعيان.

وإلى الجانب الأيسر من موقعنا الحالي، كما أجلنا النظر جنوباً ناحية مأرب. توجد تلال تدوين الثلاثة باتجاه الشمال الشرقي قليلاً. وباتجاه الجنوب - الجنوب الشرقي يقع مخروط بركاني صغير على مسافة تبلغ حوالي الميلين والنصف من موقعنا الحالي. وعلى مقربة منا تقع قمة رابية دش وهي تقع جهة الجنوب مباشرة وتمتد أطرافها على الجانبين بحوالي نصف ميل. وإلى الجنوب الغربي يوجد عدد من الفوهات البركانية التي تظهرجزئياً جهة اليسار وتغطيها جبال خرج الأيمن جهة اليمين وتغطي مساحة قدرها ٥٠٠ ياردة على بعد ميلين ونصف من موقعنا. وقد كنت فعلاً أعتقد في البداية أن الركام الصخري هو أطلال المدينة القديمة.

وتقع مأرب على بعد نصف ميل خلف مخروط بركاني صغير الحجم ثمرب مرتفع الدش باتجاه ١٦٤° من نقطة نظرنا. وعند الجانب الأقرب من هذه الرابية تجري قناة وادي أبراد الرملي وعلى مسافة أبعد من ذلك قليلاً وخلف هذه الرابية يوجد وادي السد، وسمي كذلك نسبة للخزان الذي يخفيه عنا التقاء مرتفعي حيلان

والأويسط وعند أسفل هذه المدينة ينفصل هذان الواديان بواسطة شريط من الكثبان الرملية. وباستطاعتنا تتبع خطوط مجاري هذين الواديين اللذين تتخللهما بعض الشجيرات الداكنة اللون. وعلى الجانب الآخر من وادي أبراد توجد عدد من المباني الحديثة تسمى حصن جلال تقع على المسافة نفسها من مجرى الوادي (أبراد) ومن المرتفع ذي القمة الحادة. وبالإضافة إلى تلك المستوطنات توجد أيضاً بعض الأحياء، معظمها لمجموعات مزارعين تتوزع في أعلى وأسفل وادي أبراد وأعلى مأرب توجد حصن الضيق، وذنة بالقرب من الخزان وعلى بعد خمسة أميال إلى اليمين من قمة دش وصرواح في أعلى وادي وذنة. وأسفل مأرب يرتبط توزيع المستوطنات بالمناطق التي يتوافر فيها السهل الفيضي العادي حيث تصبح أكثر انتشاراً في تلك الأماكن. وهذه المستوطنات تشمل شريف بن سعود، وحصن الأشراف (أهل عمير)، وحضن، وأهل طليب، وحصن الجلال، والحزمة، ورمزة (أهل سعد)، والجثوة (أهل جردان)، وسلم بن فهيد، وبجاش، وسريحي، وآل حتيك وأخيراً طهيل وهي آخر بقعة عند أسفل الوادي.

وخلف قناتي مياه مأرب تمتد أحزمة من الرمال الصفراء إلى الجملة والرضى المشرفة على وادي حريب وبلق وأويسط وسهل ونلحظ أن معظم آثار النشاط البركاني تتركز عند الجانب الشمالي لوادي أبراد. وساورني إحساس بأن تلك الحمم البركانية قد أدت دوراً في مأساة مأرب. وكما هو معروف فإن الأسطورة العربية تعزو انهيار سد مأرب إلى ما أحدثته الفئران في سدها العظيم حيث أصبح غير قادر على تحمل اندفع مياه السيول الموسمية. وهناك بالتأكيد أدلة نقشية (كتابة) تشير إلى فترات تاريخية أجريت فيها إصلاحات في سد مأرب بواسطة العديد من ملوك سبأ وبصورة واضحة في فترة العهد المسيحي. ويبدو أن انهيار هذا السد الكبير نجم عن جائحة عظيمة. ومن المؤكد أن مأرب لم تغمر بطوفان اللابة البركانية مثلما كان عليه في

مدينة بومبي (إيطاليا)، ولكن كل من زار هذا المكان، استناداً على ملاحظات كل من أرنو وهالفي وجلاسر[1] الذين زاروا المدينة وسجلوا الكثير من نقوشها يميل إلى رأي مفاده أن انهيار المدينة (مأرب) والسد يعزى إلى زلزال. وثمة وجود براكين توحي بدورها بحدوث انهيارات في البنية التحتية لمنطقة السد في فترة زمنية غير معروفة على وجه اليقين. وفي المدينة لدينا دليل يقيني لحدوث انفجار بركاني مصحوب بانتشار واسع لحمم اللابة، ويعرف حتى الآن للعرب باسم لابات النار أو نهر النار، ويؤرخ إلى باكورة القرن الثالث عشر[2]. وأخبرني أحد المسافرين في العصر الحديث بأنه قد جمع العديد من الصخور البركانية التي -من المؤكد- أنها ترجع إلى فترات تاريخية حديثة. ويعتقد الخبراء أن عينات الحمم البركانية التي أحضرتها من هذه المنطقة عبر وادي الحاضنة حديثة نسبياً لكن لم يحدد لها تاريخ معين. وكانت هناك قطعة صغيرة من الحجر الجيري، عثر عليها في هذا المكان، لا يوجد نوعها في المنطقة المجاورة لمأرب. ومصدر هذا النوع من الصخور الجبال البارلتية الواقعة بعيداً عن سد مأرب في هضبة خرخ الأيسر وهي دليل على أحدث تاريخ لهذه الحمم البركانية. وربما كانت هذه القطعة الحممية قد ارتفعت إلى قمة جبل خرج بواسطة الانفجار الذي أدى إلى اندفاع اللابة إلى أعلى. وفي تقديري أن نظرية خرب سد مأرب بواسطة زلازل

---

(١) أرنو صيدلي فرنسي زار مأرب سنة ١٨٤٣م، وحصل على ٥٦ نقشاً، أما يوسف هالفي فهو يهودي زار اليمن سنة ١٨٧٠م وتزيا بزي يهود اليمن وتمكن من جمع ونسخ عدد من النقوش القديمة بلغت أكثر من ٦٨٦ نقشاً، أما أدورد جلاسر فهو مستشرق نمساوي أستاذ اللغة العربية بفينا قام بين عامي ١٨٨٢-١٨٨٥م بثلاث رحلات إلى اليمن كما قام بثلاث رحلات أخرى بين عامي ١٨٨٧-١٨٩٢م وجمع العدد من النقوش ونسخ الكثير منها.

وللتوسع حول الدراسات اليمنية القديمة انظر: بافقيه، تاريخ اليمن القديم، بيروت، ١٩٨٥م، ص.ص١٠-٢٠. (المراجعون).

(٢) يعني المؤلف بذلك، البركان الذي حدث بالمدينة المنورة سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م، انظر عن هذا الحدث، الرحيلي «نار الحرة دراسة تاريخية» ضمن أبحاث الكتاب السنوي لقسم التاريخ والحضارة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السنة الأولى، العدد الأول، ١٤٠٨هـ، ص.ص٢٣١-٢٤٧. (المراجعون).

وبراكين تبدو معقولة لاسيما وأنها تستند إلى سند تاريخي قوي وهو أن البركان قد دمر الجزء القديم من المدينة في حين أن الزلازل قد وضعت نهاية للجانب الأحدث منها.

وفي كتاب "دليل البحر الأريتري" - نسخة و. هـ. سكوف، لكاتب مجهول الهوية من القرن الأول الميلادي، ص ١٥٩ - معلومات مثيرة عن الفينيقيين ذكرها المؤرخ جستن وأن سكان صور ينحدرون من الفينيقيين الذين هجروا موطنهم الأصلي بسبب حدوث بعض الزلازل وقطنوا في بعض الفترات في أرض مستنقعات في بابل (العراق)، ومن ثم هاجروا إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط حيث أسسوا مدينة اسمها صيدا -كلمة صيدا تعني السمكة في لغة الفينيقيين-. وبما أنه لا يوجد حتى الآن أي أثر لمركز حضاري فينيقي في البلاد التي يعتقد أنها الموطن الأصلي للفينيقيين ومنها هاجروا لسوريا عبر بابل بسبب الزلزال، لذلك تبدو نظرية أصل السبئيين أكثر ملاءمة لتفسير تنقلاتهم.

والاسم المعروف بالفينيقيين ما لم نربطه ببلاد بنت -كما يقترح سكوف يبدو كما لو أنه لقب للأقوام الذين عاشوا على سواحل الشام منذ أزمنة قديمة. وثمة إشارة هنا وهي أن العنقاء وهي اسم طائر الفينيقيين الخرافي الذي يبدو أنه قدم من الجزيرة العربية وكذلك شجرة النخيل والصبغ الأرجواني الذي كان شائعاً في التجارة الفينيقية؛ لذا يبدو من الجلي أن الفينيقيين عرفوا بهذا الاسم بسبب ارتباطهم بأحد هذه السلع. والاسم الأصلي لهؤلاء الفينيقيين يبدو أنه قد تلاشى بمرور الزمن ليعرفوا باسم الصوريين والصيداويين نسبة لأسماء دولهم الساحلية.

وهكذا نجد أن الفينيقيين قد ارتبطوا بشجرة النخيل وبالطائر العربي الخرافي وبفكرة حدوث هجرة من أوطانهم ناجمة عن حدوث الزلزال. ويقول جوزيفوس: تبعاً لرأي سكوف أن أصل الفينيقيين يعود إلى ديدان أو دادان سنسلس بن رماح بن كوش. ويعد ديدان في تسلسل شجرة النسب في سفر التكوين أخ سبأ.

ومن المؤكد أن هذه مصادفات لافتة للنظر. وكما هومعلوم فإن معرفة الفينيقيين بالتجارة معروفة للقاصي والداني ولا تحتاج إلى حجج لإثبتها. وإذا كانت مصر هي أم الحضارة الإنسانية كما يزعم و.جي.بري في مؤلفه «نمو الحضارة» فإنه لن يمضي زمن طويل قبل أن تقيم علائق تعاون مع جيرانها. ويجب أن تكون أهم احتياجاتها الذهب والتوابل وكلاهما سلعة عربية. فضلاً عن ذلك فإن تجارة العطور عن طريق القوافل البرية استمرت احتكاراً عربياً لفترة زمنية طويلة. وهذا بدوره أكبر حافز لتطوير وتنمية العلاقات التجارية مع الهند والأمصار الأخرى في الشرق بواسطة العرب. والباحث سكوف على رأيٍ مفاده أن التجارة عبر المحيط الهندي بدأت بواسطة العرب وانتقلت إلى الهنود لاحقاً حيث أقاموا علاقات تجارية وطيدة مع الجزيرة العربية. ولعدة قرون اقتسم العرب والهنود احتكار هذه التجارة منافسين كل من مصر ودول حوض البحر الأبيض المتوسط. ولو كان رأي سكوف عن الأصل الفينيقي للأبجدية البرافيدية مقبولاً فإن الحجة القائلة بالصلة القرابية بين التجار العرب القدماء بالفينيقيين تجد حظاً كبيراً من المصداقية.

وفيما يخص هوية كل من المعينيين والفينيقيين، فإن من المعلوم أن الهكسوس الذين حكموا مصر في عهد الأسرة الثانية عشرة إلى الأسرة الثامنة عشرة -القرن الثامن عشر إلى القرن السادس عشر قبل الميلاد- ينحدرون من أصل عربي. ويميل الباحث سكوف إلى رأي مؤداه أنهم معينيون ويرجح رأياً للمؤرخ بليني بأن أرض المعينيين هي الطريق الوحيد لتجارة البخور عبر درب طويل ضيق، والمعينيون هم أول من طور تجارة البخور. والمعروف أن بليني يرى أن هناك إمكانية وجود علاقة بين المينوانيين في جزيرة كريت والفينيقيين الذين قطنوا في نهاية المطاف ساحل بلاد لشم مما يقوي الرأي القائل بأن المعينيين هم أسلاف الفينيقيين.

والبراكين التي وجدت في وادي سبأ قادتني إلى اختبار العديد من الفرضيات قبل الوصول إلى حكم نهائي لقصة سد مأرب. وحتى الآن كما أعلم فإن الرحالة

الأوروبيين الثلاثة الذين ذكروا آنفاً وهم أرنو وهاليفي وجلاسر لم ينبهوا إلى وجود وأهمية براكين مأرب. وثمة إشارة هنا وهي أن النشاط البركاني مستمر حتى يومنا هذا في اليمن لاسيما في المنطقة الممتدة بين صرواح ومأرب كما يدلنا على ذلك الباحث العربي نزيه مؤيد العظم الذي زار مأرب عام ١٩٣٦م في عهد الإمام. وبالرغم من أنه لم يجمع قطعاً من الحمم (اللابا) البركانية ولم ينوّه بأن هذه البراكين حديثة نسبياً، فإن مجرد ذكره للبراكين في هذه المنطقة مثير للاهتمام وجدير بالتقريظ. ويلزم التنويه إلى أنه أورد معظم تفاصيل أبنية مأرب بما في ذلك الأعمدة المستطيلة المصنوعة من الصخور البركانية البيضاء كما وصف أجزاء السد نفسه وذكر بأنها شيدت من نوع واحد من الصخر والذي دون شك هو الحجر الجيري كما بينا أعلاه.

وتجد أعمال هذا الباحث العربي نزيه مؤيد العظم الترحيب باعتبار أنها أول رحة لمراقب كفء ومقتدر علمياً لمنطقة مأرب. ويلاحظ أن انتقاداته لتقرير الرحالة النمساوي جلاسر لها مسوغات منطقية. ومما يدعو للدهشة أن العظم لم يكن مطلعاً على تقارير الرحالتين هالفي وأرنو وكلاهما أمدنا بمعلومات قيّمة للغاية عن مأرب. وفي ذات الوقت تضمن تقريره قائمة مطولة لأسماء بعض المغمورين من الرحالة الأوروبيين الذين باءت محاولاتهم لبلوغ مأرب بالفشل بسبب اغتيالهم. ومن ضمن هؤلاء الأوروبيين الرحالة هرمان - بوركهارت. ويبدو أنه (العظم) كان ساذجاً لتصديقه لكل الروايات الشفاهية التي سمعها. وفضلاً عن ذلك، فإن قائمته ضمت كل أسماء الضحايا الذين قاموا برحلات لليمن.

ولسوء الحظ فإن رواية العظم عن رحلاته نشرت بالقاهرة باللغة العربية وبالتالي ليست في متناول الأوروبيين من المهتمين بشؤون الجزيرة العربية. وفيما يخص أطلال مأرب يقول العظم بأنها تشمل أكوامًا حجرية كثيرة مما يصعب دراستها وتحليلها بالتفصيل. ويذكر أن المنطقة المسورة ذات شكل مستطيل حيث يبلغ طولها ١٧٤٠ متراً من لشرق إلى الغرب و ٧١٥ متر من الجنوب إلى الشمال. ونلحظ أن قلعة مأرب

تتكون بشكل أساسي من أبنية حديثة نسبياً واستخدم في إنشائها مواد بناء قديمة في الطبقات السفلية وطفل (طين) في الطوابق العلوية. ويزعم العظم أن الأطراف الشرقية للمدينة برمتها تقع فيما يبدو داخل أسوارها. ولكن ملاحظتي الشخصية هي أن القلعة عند جانبها الغربي تقع أيضاً داخل أسوار المدينة. والجانب الجنوبي من القلعة تأثر بشكل واضح بالسيل في حين أن الجدران الشمالية والشرقية فضلاً عن بوابتين كانت سليمة كلها تقريباً.

وأورد العظم في تقريره معلومات عن أطلال معبد بلقيس والمدينة القديمة المعروفة باسم مدينة النحاس، وأطلال أخرى تسمى مروث. وكل هذه الأبنية تقع جنوب غرب مأرب وبينها وبين السد الذي يوجد على بعد عشرة كيلومترات من مأرب. ولم يجد العظم سوى آثار قليلة شاخصة للعيان في السد تشمل أحجاراً لبوابات التحكم في المياه التي تتدفق لتروي البقعتين المعروفتين باسم الجنة الشمالية ونظيرتها الجنوبية. وتتضمن روايته مقولة أسطورية مفادها بأن وادي سبأ في الأزمنة القديمة كان مستزرعاً على امتداد المنطقة من مأرب إلى حضرموت. وكان أيضاً محمياً على امتداد هذه البقعة بأبراج مراقبة كانت تستخدم كخطوط تلغراف في ذات الوقت ويذكر الكاتب (العظم) أن هناك سداً آخر إلى الشمال قليلاً من سد مأرب حيث يخدم وادياً ينحدر من هضبة هيلان. وهذا الوادي الذي لم يسمه العظم يبدو أنه وادي أبراد - وادي ذنة، أو وادي السد أو الوادي الأكثر قدماً وهو وادي سبأ. كان تعليق العظم على الرحلة الجوية التي قام بها الروائي الفرنسي أندريه مالرو بحثاً عن سبأ، مقتضباً لكنه قاسياً. وتقريره عنها نشره في عشر مقالات في مايو ١٩٣٤م في جريدة العنيد ولم تعجبني الصور التي نشرها عندما رأيتها لأول مرة. وتيقنت عندما رأيتها ثانية وصورة سبأ حية في ذهني، أن دعوى مالرو بأنه زار المكان وهو في طائرته، أمر لا يمكن أخذه بجدية. ومحاولته إعادة منظر المباني القديمة بمساعدة مهندس مختص أمر قريب من السخف. ليس هناك صورة واحدة من صوره يمكن

ربطها بمأرب. ولم ينشر مالرو خريطة توضح الطريق الذي سلكه. ونزيه العظم، الذي يمكن له أن يتحدث عن الأمر بموثوقية أكثر مني، لم يدع الشك في أذهان قرائه - بأن وصف مالرو لا علاقة له بالواقع الجغرافي والآثاري في مأرب.

وكتاب العظم نفسه[1]، ينقصه خريطة الطريق ولم يكن دقيقاً في إعطاء ساعات السير. لكنه ذكر لنا أن مأرب تقع على مسافة ١٦٥ كيلومتر شمال- غرب صنعاء ومه أخذ طريقه في اتجاه أعلى وادي السر حتى تقسيم المياه في ممر نقيل شجاع نحو ٨ر٢ قدم فوق مستوى البحر. كذلك لم يوضح بالتفصيل كيف سلك طريقه للوصول إلى صرواح العاصمة القديمة للحميريين على رأس أحد الأودية التي تجري هابطة نحو السد لتكوّن قناة سبأ. ولم يحدد بالتأكيد مكان وادي الجوبة ومعلوماتي تؤكد بأن هذا الوادي يقع جنوب مأرب وينبع واديه من الجبال مستقلاً، ويجري حتى السهل ليلتقي وادي سبأ بالقرب من مرتفع العلم الأسود. لا أستطيع أن أتحدث عن الجوبة بوضوح لأنني لم أزره. وهو واحة ذات أهمية ورفيقي حمد القردعي كان حاكماً هناك حتى قبل سنوات قليلة. وعاصمة الجوبة تسمى جديد، ومن الواضح أنها مسوطنة حديثة تحوي السوق المركزي ومكاتب الحكومة. وأسفل المجرى منها توجد السوداء (ابن نمران) وديرة أهل مسعد، وفي أعلى المجرى يوجد نجاء وفيها دفاعات أبشيل، ناصر بن زيد ومبارك بن زيد، وتأتي بعد ذلك البحري وضيقم وأخيراً حَسَم.

وإلى وقت قريب فإن حكومة اليمن مثل السلطات التركية في زمانها، لا تمسك بزمام الأمور في الأودية الشرقية ، حريب والجوبة ومأرب ورغوان والجوف، وخب والتي تعد عملياً ذات استقلال ذاتي مع علاقة واهية مع السلطة اليمنية. وفي السنوات الأخيرة قام الإمام يحيى بمحاولات جادة لبسط نفوذه على تلك المناطق. وسيطرت

(١) خصص نزية العظم الجزء الثاني من رحلته عن مأرب وأورد النقوش التي استطاع نسخها وعدداً من الصور للآثار التي قام بتصويرها. وقد طبعت هذه الرحلة. (المراجعون).

قوات الحكومة اليمنية على مأرب بقيادة السيد عبدالله بن الوزير[1] الذي كانت تحت أسرته مكانة مرموقة في اليمن سنة ١٩٣٢ أو ١٩٣٣م. وطلب من ابن الوزير أن يذهب إلى الطائف في ربيع ١٩٣٤م للتفاوض بشأن معاهدة سلام بين اليمن والمملكة العربية السعودية لوضع حد نهائي لحرب الأسابيع الستة بين البلدين. وبعد ذلك أصبح حاكماً في اليمن محتفظاً بمكاتب رئاسته في مدينة الحديدة. وخلفه في مأرب التي يحكمها حالياً السيد محمد، الهجوة الكبسي. وكان أحد أعمامه قد حضر التتويج الملكي في لندن سنة ١٩٣٧م ضمن الوفد الذي قاده سيف الإسلام حسين أحد أبناء الإمام يحيى. وتأسفت لأن الظروف لم تسعدني بزيارة السيد محمد. ولكن الملاحظ أن الفوضى السياسية والأمنية والتي كانت مستشرية قديماً في رغوان قد انتبت وحل محلها النظام والقانون. ولم تكن طبقة الأشراف القديمة في مأرب -بالتأكيد- راغبة في أن تصادر منها سلطتها التقليدية والتي لم تظهر أي مقدرة في ممارستها بصورة ناجعة لبسط القانون والنظام. وأحد هؤلاء الأشراف زار مكة لأداء فريضة الحج عام ١٩٣٧م وبدون شك ليبحث أيضاً عن دعم سعودي لسلطته. وجاء هذا الشريف ليعاتبني لأنني لم أهيئ له فرصة للالتقاء بمجموعتي بغية أن يقدم لنا واجبات الضيافة في مأرب. وأخطرني أيضاً أن أحد أسلافه وهو الشريف خالد كان قد عين

---

(١) هو عبدالله بن أحمد بن محمد لوزير (١٣٠٧-١٣٦٧هـ) بدأت خدماته في دولة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين سنة ١٣٣٤هـ قاضياً في ذمار ثم تتابع توليه المناصب السياسية والعسكرية المختلفة وحاز على ثقة الإمام، ثم انضم إلى تنظيم الأحرار المعارض للإمام الذي دبر عملية قتل الإمام يحيى سنة ١٣٦٧هـ، أعلن بعدها عبدالله بن أحمد الوزير توليه مقاليد السلطة في اليمن وتسمى بالإمام الهادي، ولكنه لم ينعم بها كثيراً حيث استطاع ولي عهد الإمام المقتول (حمد بن يحيى) استعادة السلطة ونفذ حكم الإعدام في أعضاء تنظيم الأحرار وبدأ بعبدالله بن الوزير في ٢٩ جمادى الأولى سنة ١٣٦٧هـ. وللتوسع في تلك الأحداث تنظر الأكوع، هجر العلم ومعاقله في اليمن، جـ١، ص١٩٦-٢٠٧، جـ٢، ص٨١٧-٨٥٤، جـ٣، ص١٦٦٦-١٧٣٧. (المراجعون).

أميراً بواسطة الوهابي الكبير سعود[1] في القرن التاسع عشر. وأعتقد أنه شريف النسب من الفرع الحسيني، واسمه بالكامل ولقبه هو الشريف محمد بن عبدالرحمن ابن محسن بن أحمد بن علوي بن خالد -وهو أول أمير في عشيرته- ابن حسين بن محمد. وختمه الذي يتعامل به هو «الشريف حسين بن محمد بن عبدالرحمن، أمير مأرب». وما حدث لهذا الشريف تكرر بالنسبة لأمراء عائلة القردعي في الجوبة وحريب وأبناء حمد وعلي الذين فقدوا سلطاتهم بسبب التطهير الذي طال الفوضى في تلك البقاع. والآن أصبح للإمام عدد من المسؤولين المحليين من أمراء وقضاة في تلك الأماكن بما في ذلك الجوف.

أمضينا ساعتين في قمة جبل خرَجَ لمعرفة الظواهر العامة للمناطق قبل أن نستأنف المسير. وبعد أخذ بعض العينات للحمم البركانية واصلنا المسير مسافة ١٥ ميلاً إلى طرف المُسيجد قبل أن نتوقف لأداء صلاة العصر. ومن ثم اجتزنا مسافة ستة أميال حتى وصلنا عدوان، دخلنا بعدها أرضاً حصوية وبعد فترة قصيرة وجدنا أنفسنا في بقعة رملية لكنها لم تشكل عائقاً في طريقنا. وبعد أن توقفنا لبعض الوقت لأخذ بعض القراءات المساحية ومعرفة الاتجاهات توجهنا نحو الجنوب حيث وصلنا إلى خربة أبي السعود، ومن ثم عدلنا اتجاهنا ناحية الشمال وبعد مسيرة ٧-٨ أميال من عدوان. والآن الساعة الرابعة مساء وقد قررت أن نقضي ساعتين قبيل الغروب لتفحص الأطلال قبل أن نلتقي برفاقنا من قافلة الجمال عند بئر مسعودة الواقعة على بعد نصف ميل من موقعنا الحالي وغرب وادي الماس، وفي المساء كنت سعيداً لأخلد للنوم بعد نهار عمل مليء بالنشاط ولكنهم نادوا عليّ لمباشرة أحد مشاكلنا اليومية. وتبين لي أن كل المخزون من التموينات قد نفد فجأة. وتساءلت كيف يقوم سعد بن معيلم بتبديد تموينات تكفي لمدة ثلاثة أسابيع في خلال أسبوع واحد مما جعلني

(١) المقصود: الإمام سعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود. (المراجعون).

أتشكك في نزاهته وفي كفاءته، ولكن علينا إيجاد الغذاء لبقية الرحلة؛ ولهذا قررنا أنه بعد العشاء أو في الصباح الباكر أن يذهب ابن مدعار إلى أسداس -إحدى القرى في وادي رغوان- ليأتي بما يمكن أن يحصل عليه. وفي الواقع لم يجد شيئاً هناك فذهب إلى خربة آل جدعان حيث أحضر منها التمر وحبوب القمح، وكذلك تحذيرات الأهالي هناك بأنهم لا يريدون رؤية وجوهنا. ولم يتبق لنا سوى قليل من الأرز في السيارة ونفد كل ما عندنا من اللحوم لذلك ليس هناك ما يدعو للتذمر من الجوع طالما بددنا كل مخزوننا الغذائي.

وفي الصباح الباكر أخذت حماماً ساخناً واستبدلت ملابسي داخل تعريشة شكلت بواسطة شجيرات الأثل المتشابكة. وبعدها قمت بعمل مسح طبوغرافي ودراسة لوضع رحلتنا وطبيعة المناطق التي حولنا وعلى بعد ١٠٠ ياردة من المكان الذي أقف فيه عند قاع وادي مسعودة تقع بئر مسعودة الوحيدة وهي ذات فوهة واسعة خالية من أي دعامات حجرية وتصل إلى عمق أربع قامات. والحصول على الماء هنا يعتمد بصورة كلية على مياه السيول الموسمية أو ما يعرف بالكارة. ويجري الوادي باتجاه شمال شرق - جنوب غرب في هذه البقعة ويُحد على الجانبين بضفاف رملية تكسوها بصورة مكثفة نباتات الأثل والراك والحرمل ونباتات أخرى. وينبع ذلك الوادي من مرتفعات حجاز أهل جدعان، وهي أرض تدخل في حوزة قبيلة نهم التي تعد جدعان أحد فروعها، وفي الطريق في اتجاه جنوب غرب تتصل أرض نهم ببلدتي حلحلان وهو اسم ورد في النقوش الحميرية التي جمعتها من هذه المنطقة بالقرب من مرتفعات عقشة حيث تعبر إلى وادي الجوف، ووادي رغوان نفسه -يسمى أيضاً وادي مخينيق- يأتي عبر ممر بين مرتفعات هيلان وجدعان حيث يمر بالجانب الأيمن من خربة آل جدعان.

وأسفل هذه المنطقة ينقسم وادي رغوان إلى فرعين رئيسيين (أو جنوباً) بواسطة قرية أسداس على جانبها الأيسر، ثم يدور بين الدريب وخربة أبي السعود حيث

يتصل بفرعه الشمالي الذي يمر عبر أطلال الفضية -عند جانبه الأيسر- والسحيل إلى الديب على جانبه الأيمن. وكل هذه المنطقة تغطيها الأودية التي تكون دلتا عظيمة كانت في الأزمنة الماضية -اعتماداً على التحكم في مياه السيول بواسطة السدود- تشكل أرضًا زراعية واسعة تتخللها العديد من القرى. وتحولت الآن إلى أرض جرداء مقفرة تغطيها الكثبان الرملية التي تتخللها بعض البقاع الحصوية وإن كان وسطها لا يزال يمارس فيه بعض الزراعات البدائية. وثمة إشارة هنا وهي أن مستوى المياه الجوفية ضحل على مقربة من سطح الأرض ويمكن حفر الآبار دونما عناء. ويلاحظ أن السكان الحاليين للمنطقة قد فقدوا مقدرة أسلافهم في السيطرة على مياه السيول الموسمية والعنيفة أحياناً وباتوا يعتمدون في معيشتهم على الحبوب وحليب الأغنام والضأن. والشيء الوحيد الذي توارثوه عن أسلافهم هو الكرامة وعزة النفس.

وعلى مسافة قريبة إلى الشمال الغربي تقع سلسلة من الروابي المنخفضة تسمى النادر تشكل الحدود بين منطقة رغوان ومستوطنات وادي الجوف. وقد طلبت من ابن هضبان أن يرشدني إلى هذه الروابي لإلقاء نظرة على الجوف كما فعلنا من قبل في مأرب. وهذه المنطقة تستوطنها مجموعات بدوية. وأخطر ابن هضبان أن هناك جزءاً من قبيلته يجوب الآن هذه المنطقة. وكان لا يستطيع نسيان أن أحد أبنائه محتجز بواسطة الإمام في صنعاء مثل أبناء بقية زعماء العشائر في منطقة الأودية الشرقية وذلك كضمان لاستمرارية ولائهم للسلطة المركزية. ولكن ابن هضبان لم يكن خائفاً من ن يقول الحقيقة في أنه يمد يد العون إلى رجل (فيلبي) يتجول في هذه المنطقة. لذلك كان عليّ الاقتناع أن ما أشار إليه ابن هضبان هو حوض معين حيث توجد بعض قراه التي كانت يوماً ما مدناً عظيمة مثل الحزم وغيل ومتمة وغيرها.

ورافقني ابن هضبان في جولة تفقدية لأطلال مواقع رغوان حيث قضينا يوماً ممتعاً هناك. وبدءاً من مخيمنا وباتجاه المرتفعات الواقعة إلى أقصى الشمال من هيلان، عبرنا أرضاً زراعية صغيرة تقع في منخفض يبدو موقع مياه خلفي منعزل لوادي

رغوان. وعند المنحدر الصخري عند أقصى هذا الوادي وجدنا مبنى ضخماً منعزلاً مبنياً بأحجار خشنة غير مشذبة (دبش). ويتكون من قسم كبير وأجزاء أخرى صغيرة الحجم. ولوحظ أن ثلاثة مداميك فقط من البناء الحجري ما تزال شاخصة للعيان. ويشغل البناء برمته مساحة قدرها اثنان وعشرون قدماً وربما كان مخفر شرطة لحماية أمن الأرض الزراعية أسفل الوادي. ولم نعثر على أي نقوش في المبنى الذي يعرف باسم «الديرة» أو «ردم الدرية».

وبعد مسيرة ميل إلى الأمام من موقعنا وعند أعلى رابية بين هذا البناء والجانب الأيسر للوادي، دخلنا قرية كبيرة الحجم مهجورة وهي عبارة عن أطلال. وتبدو هذه القرية كما لو أنها كانت مأهولة بالسكان إلى عهد قريب. هذه القرية -كما أخبرت- تسمى الفاضية هجرت مثل قرية الدريب التي تقع عند أقصى أسفل الوادي. وعلى مقربة من هذه المستوطنة وجدنا بعض الرجال والنساء يسقون خرافهم وقد أبدوا امتعاضاً من وجودنا. ومباني هذه القرية مستطيلة الشكل بنيت من كتل حجرية غير مشذبة (دبش). وفي أحد الأركان الحجرية للمبنى الضخم يوجد حوض ضحل بيضوي الشكل يبدو أنه نحت في وقت قريب ليكون خزاناً لحفظ المياه. ويجدر التنويه إلى أن المستوطنات الزراعية في رغوان باستثناء خربة آل جدعان تتبع إلى أقسام مختلفة، دهم وآل مروان وآل شداد وهمدان من عشيرة ابن هضبان.

ومن هذا المكان (رغوان) يمكننا بسهولة رؤية أسداس المدينة الرئيسة لعشيرة دهم وهي تقع على بعد ميلين إلى جهة الجنوب الشرقي. وتحتوي هذه المدينة على منازل عادية ليست قديمة. لذلك قصدت أن لا أقف عندها واتجه فوراً نحو السحيل التي تقع على بعد ميل من موقعنا ويتوجب علينا عبور بعض المجاري المائية قبل بلوغها. وبصورة عامة فإنها تشبه خربة أبي السعود. وهي ذات شكل بيضوي وجدرانها الدائرية ما تزال سليمة وشيدت من كتل حجرية مشذبة من الحجر البازلتي الأسود. وتقع أطول محاورها موازية للوادي تقريباً باتجاه شمال شرق - جنوب غرب. وهنك

أثر لخندق كان يحيط بهذا الحصن؛ لذا يمكننا القول إنها قرية محصنة على جوانبها الثلاثة. وفي الركن الجنوبي وعلى امتداد الجدران المكونة للحصن فإن الرمال تغطي هذه البناء بشكل منحدر بحيث يتعذر رؤية المداميك السفلى. والملاحظ أن المخطط العم للجدران بجوانبها الأربعة بسيط ومسطح مع وجود زوائد مستطيلة موضوعة بشكل فواصل تبرز للأمام بحوالي ثلاثة أقدام من المخطط العام للبناء. ونجد أن الجدار الشمالي الشرقي متآكل بسبب الأمطار. ويبدو أن البوابة الرئيسة للحصن تقع في هذا الجانب. وعلى أية حال، فإن المبنى متهدم ومتآكل إلى حدٍ بعيد بحيث يصعب إعطاء فكرة عن التركيب البنائي. ولكن نلحظ أن أبرز مظاهر هذا البناء أربع لوحات تذكارية منقوشة بنقش واحد متكرر وموضوعة في وسط كل جدار من جدرانه، والنقش يسجل اسم صاحب البناء واسم المبني (أحد مكارب سبأ) واسم المكان، حرب (الاسم الحديث حريب جنوب مأرب). والجزء الداخلي لهذا الحصن يتكون من كتل من الأطلال دفنت في أكوام من الرمال. والعديد من هذه الأبنية تم تسقيفها وإصلاحها حيث استخدمها الرعاة والمزراعون في الأزمنة الحديثة، لكن من المستحيل -دون حفريات- إعطاء صورة صحيحة عن مخطط البناء القديم. وفي الجانب الشمالي الغربي لهذه الأبنية تتشتت الكسر الفخارية وكتل خبث الحديد مما يوحي بوجود ورش في هذا المكان لإمداد سكان الحصن باحتياجاتهم من الأواني. ومما لا ريب فيه أن السحيل وخربة أبي السعود مستوطنات عسكرية بنيت بهدف الدفاع عن هذه المنطقة التي تعد الخط الأمامي لمملكة معين. ويوحي وجود هذه الحصون بحالة من عدم الاستقرار في الفترة التي كانت فيها سبأ القوة الصاعدة في الجنوب تهدد دولة معين، وبعد قرن أو نحوه دان لها الأمر. وربما يرجع تاريخ الحصنين إلى حوالي ١٠٠٠ ق.م. وبما أن حصن السحيل قد بني بواسطة مكرب سبأ، فربما يوحي ذلك بأنه كان عبارة عن قاعدة عسكرية حدودية أكثر من كونها جهازًا دفاعيًا في دولة معين.

وفيما يخص المنطقة حول السحيل وخاصة الجزيرة التي تكوّنت بفعل التقاء مجرى الوادي؛ تمتد بقعة واسعة من الرمال والترسيبات النهرية مما يوحي بوجود أراض زراعية واسعة قديماً، استمر السكان الحاليون في استزراعه ولكن بصورة غير متقنة ويعوزها التنظيم. ودون ريب فإن التلال الحجرية في هذه المنطقة عبارة عن بقايا مساكن فلاحين أو أبراج مراقبة لحماية المحاصيل الزراعية من النهب.

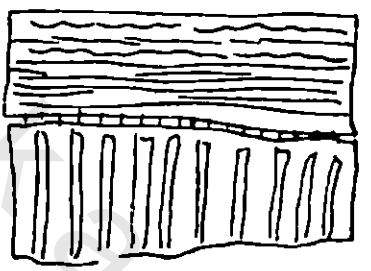

وعلى مسافة تصل إلى حوالي الميل من موقعنا، تقع قرية الدريب التي نتجه الآن نحوها عبر طريق رملي في الوادي. ومن الجلي أن قرية الدريب كانت مأهولة بالسكان في الأزمنة الحديثة. وأخليت هذه القرية نتيجة لانحسار السيول كما نوهنا لذلك آنفاً. وعلى أية حال، كان هذا المكان هاماً جداً في الأزمنة الماضية ومعظم أبنية هذه القرية مدفونة بكامل هيئتها تحت الطوابق العليا للمباني الطينية الحديثة. وفي معظم الحالات فإن الألواح والكتل الحجرية للمباني القديمة أعيد استعمالها لبناء أساسات المباني الحديثة التي تتكون من عدة طوابق على هيئة حصون. ويرجح أن يكون هناك معبد ذو أهمية عظيمة هنا، لاسيما وأننا عثرنا على إطار من حجر الرخم عليه نقش عند أعلى أحد مداميك الجدران القديمة الجيدة البناء والتي شيدت لتدعم الغرفة العليا التي بنيت من الطين. ويلاحظ أن هناك عدداً كبيراً من الألواح الحجرية الكبيرة التي تحوي نقوشاً استخدمت دون استثناء في بناء المساكن الحديثة. ولا يوجد

أي دليل على وجود جدار محيط بالمبنى وربما كان غير موجود ألبتة في نظام البناء في هذ المكان. وتقع القرية عند تل مرتفع على الضفة اليمنى للوادي (السحيل) بعيداً بعض الشيء عن النقطة التي يلتقي فيها فرعا الوادي. ويبدو أن الطبيعة المقدسة للمبنى كمعبد قد قللت الحاجة إلى تحصينه. وتشير النقوش التي بحوزتي إلى أن الاسم القديم لهذا المكان هو «كتل»، ويعني هذا الاسم حديثاً البيت (الصغير). وعلى الجنب الشمالي من المبنى توجد جبانة عربية تضم قبوراً ضحلة، وأعلى هذه القبور متكل بفعل الزمن مما أدى إلى ظهور بعض الهياكل التي تغير لونها في بعض الأحيان. والموقع مغطى بالكسر الفخارية على هيئة أكوام نفايات كبيرة في المنطقة التي تقع بين القرية والجبانة.

والوصول إلى خربة أبي السعود من هذه المنطقة يتطلب اجتياز عقبة الكثبان الرملية المغطاة بالشجيرات الشوكية. وتبلغ المسافة إلى هذا الحصن الكبير خربة أبي السعود حوالي الميلين باتجاه الشمال الغربي. أما حصن السحيل الذي تعد مبانيه سليمة نسبياً مقارنة بخربة أبي السعود فيبدو أنه مكتف ذاتياً ومسور حيث تحيط به أربعة جدران. وبالنسبة لخربة أبي السعود فيمكن القول إنها عبارة عن قلعة لمدينة واسعة ويصعب تحديد أبعادها بسبب الكثبان الرملية الكثيفة التي تغطي أطلالها. ومن المحتمل أن المدينة كانت غير مسورة وتمتد حوالي نصف الميل من القلعة إلى رابية منخفضة باتجاه الغرب والتي دون شك تشكل درعاً واقياً للمدينة من السيول. والجوانب الشمالية والجنوبية -كما يبدو- غير محمية وتظهر للعيان كلياً أو جزئياً بعض أجزاء من المباني وكسر لألواح حجرية مخلعة. وفي الجانب الشمالي توجد جبانة عربية حديثة مغطاة بالرمال. وبينما كنت أتفحص أجزاء المدينة لفت انتباهي أحد المرافقين نحو شاهد قبر دفن ثلاثة أرباع أجزائه داخل الرمال ويبدو مربع الشكل، قصيراً وعليه نقش حميري. ولم أكن أود نبش القبر لأن هذه المسألة -بالنسبة للعرب مثل بقية الشعوب الأخرى- حساسة. لذلك ألمحت إلى الرجل بأنه إذا استطاع أن

يحضر لي شاهد القبر في الخيمة سوف أعطيه ريالاً. وفعلاً أحضر لي شاهد القبر ليلاً والآن يقبع داخل المتحف البريطاني. ويعد نقش هذا الشاهد هو الوحيد الذي وجد خارج القلعة. ولكن قمت بنسخ العديد من النقوش سواء تلك التي وجدت على الأبواب الخارجية أو في العديد من الأطلال داخل المبنى والتي سوف أقدم وصفاً لها في الوقت المناسب.

وتبعاً للنقوش التي بحوزتي، فإن اسم هذا المكان هو يلت (YLT) -قارن إيلات، بالقرب من أزيون جبر في خليج العقبة-. واسمها الحديث هو أطلال سعود نسبة إلى الروايات المحلية التي ترجعها إلى أيام سعود الكبير الذي اجتاحت جيوشه الوهابية كل هذا القطر في العقد الأول من القرن التاسع عشر. وتجدر الإشارة هنا إلى عائلة من الأشراف في مأرب يبدأ اسمها بـ "ابن سعود". ويبدو أن هذا الاسم المسبوق ببادئة (ابن) تدل على النسب قد أعطي على شرف ذلك العاهل (سعود الكبير) في الزمان الماضي. وأنوه هنا إلى أن الفرد العربي سريع في تبني الأسماء الشائعة في زمنه لأطفاله. ومثال لذلك الاسم (فيصل) حيث إنه اشتق أصلا من اسم أحد رجال العائلة السعودية الحاكمة ومن ثم أصبح شائعاً في الوقت الحاضر كتقدير وإجلال إلى ملك العراق الأول. والاسم (لورنس) كان يعد موضة لدى عرب ما وراء نهر الأردن[1]. وهناك أيضاً اسم فيلبي -أو كان لأنه لم يعش طويلاً-، في نجد وحتى أسماء مثل كاماندر (القائد)، متر (سيارة) مألوفة[2].

---

(١) لورنس هو المعروف بـ «لورنس العرب» وهو أحد رجال المخابرات البريطانية الذين عملوا في البلاد العربية وكان وراء تأجيج الثورة العربية ضد الدولة العثمانية وللمزيد عن حياته وأعماله انظر:

لورانس في البلاد العربية، من تأليف ريتشارد الدغتون، ترجمة محمود عزت موسى مراجعة محمد أنيس، الدار المعربة للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦م. (المراجعون).

(٢) لم يشتهر في نجد ولا في غيرها من البلاد العربية أن تسمى أناس باسم فيلبي، وإنما اشتهرت أسماء مثل لورنس في شرق الأردن، وذلك راجع إلى أن هذا الاسم ومن تسمى به تجمعهم عقيدة واحدة وهي النصرانية، وإن تسمى به بعض المسلمين، فعن جهل منهم. (المراجعون).

تركت وصف قلعة خربة أبي السعود إلى نهاية هذا الفصل لأنها أهم مبنى أثري في منطقة رغـوان وإلى حد ما لأنها الموقع الذي اسـتطعت أن أقوم بفحصـه بدقة في ليلة وصولي وعند نهاية اليوم الثاني لزيارتي لهذه المنطقة. وكما ذكرت سابقاً فإن هذا المبنى يقع وسط بحر من الرمـال حيث تصل موجات هذه الرمـال إلى جوانب جدران المبنى. وفيمـا عدا أماكن قليلة، فإنهـا تغطي المداميك السفلى للبناء المشيّـدة بحجارة الباذلت السوداء. وكل حدود المبنى الخارجـية كانت ظاهرة للعيان بالرغم من أن هناك العديد من الأقسام كانت تالفة ومتـآكلة بصورة كبيرة سواء بواسطة الزلزال الذي يبدو أنه صدع الجانب الداخلي للمبنى أو بواسطة الإنسان أو بواسطة السيول، كما ينعكس ذلك في معظم الجزء الشرقي من الجدران. والحصن ذو شكل غير منتظم، يبغ ارتفاع جدره الشمالي الغربي ٤٠٠ قـدم رابطاً الركنين الشمالي والغربي للبناء. وعند الركن الشمالي للبناء يوجد جدار يبلغ ارتفاعه ٤١٠ أقدام يمتد باتجاه الجنوب الشرقي مع ميل قليل باتجاه الشمـال. وبحوالي ١٠٠ قدم من هذا الركن نفسه، توجد البـوابة الرئيسة للحصن والتي يبلغ عرضها أربعين قدمـاً، وهي الآن مجرد فجوة في الجدار دونما أي إيماء: تشير إلى أنهـا كانت بوابة أو ملاحق لها. والجدار الشـرقي يمتد باتجاه جنوب - الجنوب الشرقي لمسافة ٢٨٠ قدماً ثم باتجاه جنوب - الجنوب الغربي لمسافة ٣٢٠ قدماً ناحية الركن الجنوبي للبوابة.

والبوابة الثانية عرضها عشرة أقدام وتقطع الجدار عند ارتفاع ٩٠ قدماً من الركن الغربي وتشرف على البوابة الرئيسة التي ترتبط بهـا عن طريق شارع فسيح. وكما هو الحال في السحيل، فـإن أقسام الجدار تقف خارج الخط العام لمحـيط المبنى على هيئة فواصـل موزعـة على مسافات قصـيرة وبعمق ثلاثة أقدام بحـيث تسمح للجنود برمي منتظم للنار من أي نقطة. ويمكن القول استناداً على المؤشرات البادية للعيان إن الجدار الدائري حول المبنى يصل ارتفاعه ٢٠ قدما ويـتكون في معظم أجزائه من ١٦ مدماكاً من الأحجـار الجيدة القطع الموضـوعة بشكل متقن بالـرغم من أن بعض أجزاء البناء

مشيّدة من حجارة رملية غير مشذبة (دبش). ومعظم المباني العامة داخل الحصن مبنية من هذه المادة نفسها. وهذا المبنى لا يحوي أي شيء يمكن أن يقال: إنه يشكل أجزاء ناتئة أو أبراج تزيينية في محيطه الدائري. لكن يلاحظ بالجدار الغربي للمبنى قرب الركن الشمالي ممر يحيط به سور متهدم. ويبلغ عرض الممر ثمانية أقدام ويقود للداخل بمسافة ٥٠ قدماً. ويصعب التكهن بمعرفة الهدف من هذا الممر ولكن ربما كان مرتبطاً بحجرة حراسة، ويستخدم لدخول وخروج فرق الحراسة في الأوقات التي تكون فيها البوابات مغلقة. ولا نستطيع الجزم عما إذا كانت هناك بوابة ثالثة عند زاوية الجدار الشرقي بسبب الوضع الحالي لأطلال المبنى. ويبلغ السمك العام للجدار الدائري حوالي أربعة أقدام. وعثرت على ثلاثة نقوش على الجانب الخارجي لهذ الجدار في نقاط مختلفة، ويبدو أنها ليست في وضعها الأصلي.

لقد ذكرت سابقاً الطريق الرئيس الذي يربط بين البوابتين في خربة أبي السعود. ويلاحظ أن البوابة في الجانب الشمالي ذات فتحتين وبحالة سليمة. وهناك طريق ثان يبدو أنه يمتد من هذه البوابة بميلان عبر الحصن يحتله تل كبير الحجم يوحي بأنه موقع للحراسة. وعلى جانبي هذا التل توجد آثار طريق ربما كان حلقة الوصل بين هذا المكان والبوابة الشرقية من جهة والبوابة الغربية من الجهة الأخرى رغم أن الطريق الأوسط في الحصن يبدو مغلقاً بواسطة رديم أطلال المباني. ولا يستبعد أن يكون هناك طريق ثالث يبدأ من الركن الجنوبي للبوابة الرئيسة ليكمل حلقة المواصلات داخل الحصن. ويوجد كوم من الرديم يحتل المساحة في الركن الجنوبي للحصن وربما كان بيتاً للحارس. وعلى جانبيه علامات شارع ربما يوصل هذه النقطة بالمدخل الشرقي من جهة والمدخل الغربي من جهة أخرى. هذا بالرغم من نظام الطرق الداخلية في وسط الحصن قد طمرته رديم المباني المهدمة.

باتجاه شمال الركن الجنوبي توجد كتلة من الرديم تنحدر من الجدار الغربي باتجاه الطريق المتجه شمالاً. وعند منعطف الجدار الشرقي توجد كتل ضخمة من الرديم

وأخرى كبيرة من الحجر الصابوني تدعم الفرضية القائلة بوجود بوابة في هذه الجهة في حين أن هناك مجموعة من المباني الهامة المشيّدة بالحجر الرملي توجد في الركن الذي يكوّنه التقاء كل من الجدار الشرقي ونظيره الغربي. وأكبر هذه الأبنية يبلغ ٤٠ قدماً طولاً و ٢٥ قدماً عرضاً مع وجود نتوء ضيق باتجاه الغرب، في حين أن المبنى الأصغر ينتصب في الزاوية التي تشكّلت مع هذا البروز. ويصعب الإجابة على السؤال عما إذا كانت هذه الأبنية الناتئة عن الجدار الدائري ذات أغراض دفاعية أو أن لها أهدافاً أخرى، وما عدا بعض هذه المباني الموجودة والكميات الكبيرة من كسر الأواني الفخارية والمعثورات الأخرى التي تشمل الهاونات والأحواض الحجرية، فإن الجزء الجنوبي من الحصن يخلو بتاتاً من أي مظاهر حضارية ذات أهمية.

والقطاع الشمالي الغربي من الساحة التي تحيط بها الجدران يعد أهم أجزاء المبنى حيث يقع بين البوابتين الرئيستين. وفي الجانب الغربي من الطريق -والذي يقع باتجاه جنوب غرب - شمال شرق- هناك من يفترض وجود مخفر حراسة. وفي الجانب الآخر بين الركن الغربي والبوابة الغربية ينتصب بناء حجري ضخم طوله ٢٠ قدماً وعرضه ١٠ أقدام. وما عدا هاتين المجموعتين لا توجد منشآت غرب الطريق. لكن نلحظ أن الفضاء بين هذا الطريق والجدار تغطيه كميات ضخمة من الألواح الحجرية والهاونات والكسر الفخارية وغيرها. وعند البوابة الغربية نفسها وداخل الجدار يوجد بناء من الحجر الجيري يوحي بوجود مبنى ذي حجم متوسط مع ألواح حجرية طويلة. وفيما يبدو أن هذا البناء يمثل بقايا بوابة كانت ذات أبعاد كبيرة. وفيما يخص البوابة الرئيسة لا توجد آثار شاخصة تدل عليها سوى فتحة ما تزال فجوتها موجودة. ومن هذه النقطة تمتد مجموعة من التلال وأطلال حجرية على امتداد الجانب الشرقي من الشارع الرئيس بدءاً من كومة ردم صغيرة عند ملتقى الشارعين تؤدي إلى البوابة الشرقية والركن الجنوبي على التوالي. وعند هذه البوابة (الشرقية) يوجد هاون كبير من الحجر الرملي مهشم. وتوجد مباشرة خلف هذا الركام -وفي الزاوية التي تقع بين

الجانب الجنوبي والشوارع الرئيسة- كومة صغيرة من الرديم يقبع خلفها تل تتناثر فوقه كسر فخارية حول حوض ضخم أو صهريج مياه من الحجر الرملي منشطر إلى قسمين. وبعيداً عن ذلك وباتجاه البوابة الغربية توجد العديد من التلال التي سأرجع لوصفها لاحقاً. وعند البوابة لغربية نفسها وعلى جانبها الجنوبي بالقرب من الجدار، توجد أطلال منشأة حجرية ذات واجهة يبلغ طولها ٢٠ قدماً على امتداد الطريق وعرضها ١٠ أقدام.

عند مغادرتي خربة أبي السعود عند نهاية المسح الذي أقوم به لمنطقة رغوان، سوف أترك وصف مبانيها العظيمة ليتضمنها تقريري النهائي عن الأطلال. ومن بين العديد من التلال التي ذكرتها عرضاً، هناك معبد يلت الضخم (YLT Temple) وهذا البناء في الوقت الحاضر عبارة عن أطلال حجرية متناثرة ويبدو أنه قد تهدم بواسطة زلزال. ولا يزال هذا المبنى يحتفظ ببعض جماله وجاذبيته القديمة رغم أن أعمدته ومذابحه قد تناثرت على هيئة كسر وشظايا. وأعمدة هذا المبنى مربعة الشكل قطعت بنفس طريقة بناء سد مأرب وما جاوره من الأبنية. ومعظم بقايا هذا البناء من الحجر الجيري الأبيض اللامع الذي يشبه الرخام. وهذه الأعمدة الشاخصة للعيان يتراوح طولها بين ٨-٩ أقدام وأطولها يصل إلى ١٠ أقدام. والعديد من هذه الأعمدة تحمل نقوشاً معظمها مشظاه بسبب انشطارها. وهناك قطعتان من الحجر الجيري إحداهما عليها نقش، وكلاهما قد يكون الطبقة العلوية التي كانت ذات يوم تحملها الأعمدة التي يبدو أنها ضعيفة ولا تحتمل وزن تلك الكتل الحجرية التي يتراوح سمكها بين ١٥-١٨ بوصة. وكنت في ذلك الحين على رأي مفاده أن تلك الكتل الحجرية الضخمة عبارة عن مذابح حجرية رغم أنه لا يوجد أي دليل من مظهرها العام يؤيد هذه الفرضية. وبقية مباني المعبد مشيّدة من الأحجار الجيرية لكنها صغيرة الأحجام. والتل برمته مغطى بكسر فخارية وخلاخيل وقطع زجاجية وخرز وما شابه

ذلك. ويبدو أن المعبد لم يكن ضخماً ولكنه كان عبارة عن جوهرة من البهاء والجمال وسط الأبنية المدنية للحصن.

ورجعت إلى المخيم بعد مغيب الشمس منهكاً من جراء المجهود الذي بذلته في فحص الحصن (القلعة) والأطلال المكسوة بالرمال التي تحيط بها. ولقد كنت حزيناً؛ لأن مرحلة من مراحل بعثتي (مهمتي) قد انتهت. وفي الغد سنرجع إلى موطننا عبر نجران بعد انقضاء شهرين مليئين بالإثارة وسنقول وداعاً، وداعاً إلى الأبد لسبأ.

ارتفعت أصوات الحزن من فضاءات الرمال البعيدة
شـــــاحب وأخرس . . . ثم مرة أخرى وداعـًا
ملقـــــى في القبر مثل ضباب ساكن - وداعـًا

وبينما كنت أقوم بتخزين الموجودات التي عثرت عليها في يلت (YLT) والمنطق المجاورة لها، بدأت أتأمل في ذكريات وأحداث الشهرين الماضيين المليئة بالإعجازات وذلك منذ مغادرتي نجران إلى عالم غير معروف يتوق للشهرة من خلال النزاع والشغب. وقد جئت إلى هذا العالم بالكثير من الأصدقاء لنقر بكلمة شكر، لا لنبدي ملاحظة خصام عن عدن الصاخبة.

لقد حققت هذه الرحلة نجاحاً عظيماً، وهنا سوف أقضي آخر ليلة لي في هذه البقعة التي لم يرها أوروبي سوى مرة واحدة. وكنت قد أخذت معي في هذ الرحلة تقرير هالفي عن رحلته في بلاد سبأ ونسخاً من نقوش هذه المنطقة. وضمن هذه النقوش توجد العديد من الكتابات التي توجد بها عبارة خربة أبي السعود. ولكن بعد اطلاعي على تقريره الخاص عن الطريق الذي سلكه عبر منطقة رغوان، شعرت في الحال أن ما كتبه هالفي يجانب الصواب. ومما لا شك فيه أنه قد عبر هذه المنطقة من الجوف إلى مأرب وشاهد العديد من المواقع والأطلال الأثرية وجمع منها الكثير من النقوش. وأحد هذه النقوش يذكر اسم فاثيا Fathia -والذي افترض أنه يطابق اسم الفاضية Fadhiya المذكور أعلاه- وخربة آل السعود. ولا أستطيع أن أجد علاقة بين

وصف الطريق الذي سلكه وما أعرفه عن هذا الطريق استناداً إلى خبرتي. وقد تادر إلى ذهني أن ذلك الاختلاف يعزى إلى أن الدليل الذي اصطحبه من مدينة الجوف قد أمده بأسماء عشوائية لمواقع لم يزرها قط. ويجدر التنويه إلى أنه لم يذكر أنه زار السحيل أو الدريب التي لا يمكن أن يكون قد أخفق في التعرف عليها وهو في طريقه من الفاضية إلى خربة أبي السعود. ورجعت إلى نقوشه ووجدت أن لا علاقة له بالنقوش التي جمعتها من هذه المنطقة. ولم أتعرف في رحلتي على موقعي فضية وخربة أبي السعود اللتين ذكرهما في تقريره. ولكن ذكر لي ابن هضبان أن فضيا عبارة عن بئر في وادي أبراد. وبالنسبة لخربة أبي السعود فإنها -كما يرى هالفي- محطة يرتادها آل عبيدة في طريقهم لاستخراج الملح في صافر ويتزودون منها بالماء.

ولم أزر خربة آل جدعان أو أسداس فكلاهما ومواقع أخرى غير مدوّنة ربما تكون قد أمدت خربة أبي السعود بهذه النقوش. من المؤكد أن لا علاقة ألبتة بين نقوشه والنقوش التي جمعتها. وذهبت للنوم مع اقتناعي الشديد بأنني -من المؤكد- أول من كشف أسرار يلت (YLT) وحرب (Harb) وكتل (Katl) مدن المعينيين القديمة.